

باب يوسف

رواية



باب يوسف

رواية

مدارج

عمل روائي متخيّل، وأي تشابه غير مقصود مع أشخاص أو وقائع حقيقية هو
محض مصادفة.

إهداء

إلى الذين يفتحون للناس باباً،

ولا يتركون بيوتهم بلا باب؛

إلى من عرفوا أن الرفق لا يُسقط الحق،

وأن اللين ليس انكساراً.

الفصل الأول

الرماد عند العتبة

في الليلة التي احترق فيها دكان يوسف، كان أول من اتصل به الرجل الذي هدده قبل الظهر.

لم يقل رائد الكيلاني السلام. قال، بصوت خالطه ضجيج بعيد:
— دكانك يحترق.

نهض يوسف من طرف السرير، وبقي الهاتف عند أذنه لحظة كأنه لم يفهم الكلمتين.

— من أخبرك؟

— أنا في آخر الشارع. اتصل بالدفاع المدني إن لم يكونوا وصلوا.
ثم انقطع الخط.

كان الضوء في الصالة مشتعلًا. رفعت هند رأسها من حاسوبها، ورأت أباه يلبس ثوبه فوق قميص النوم، ويبحث عن مفاتيحه في الطبق الخشبي قرب الباب.

— ماذا حدث؟

قال وهو يفتح الباب:

— الورشة.

وصلت مريم من الممر، وقد ثبتت نهارها بيد واحدة.

— نأتي معك.

— ابقيا حتى أعرف ما هناك.

لم ينتظر اعتراضهما. نزل الدرج مسرعاً، ثم عاد ثلاث درجات لأن هاتفه بقي على الطاولة. حين خرج ثانية كانت هند وراءه.

— قلت ابقني.

— وأنا سمعتك.

لم يكن في صوته متسع لخلاف آخر. أشار إليها أن تركب، وقاد بين شوارع الحي التي عرفها في الظلام كما يعرف مواضع المسامير على منضدته.

اتصلت هند بالطوارئ، فأخبروها أن البلاغ وصل وأن الفرق في الطريق. أما يوسف فاتصل بأبي طارق؛ رن الهاتف حتى انقطع. اتصل بسامي، فلم يرد. في المرة الثانية أخبره التسجيل أن الهاتف غير متاح. رفع الجهاز عند أول إشارة وحاول مرة ثالثة.

قالت هند:

— انظر إلى الطريق يا أبي.

أعاد الهاتف إلى مكانه وخفف سرعته. لم يكن الوصول قبل سيارة الإسعاف لينفع أحداً، لكنه احتاج إلى أن يسمع ذلك من غيره.

ظهر الدخان قبل أن يظهر المبنى. كان يخرج من السقف الواطئ كتلة سوداء تتفرق فوق البيوت، وتلقي أضواء سيارات الإطفاء على الجدران القديمة ومضات حمراء. أغلق رجال الأمن أول الزقاق، فتوقف يوسف في منتصف الطريق ونزل قبل أن يطفئ الحرك.

ناداه أحدهم، فلم يسمع أو تظاهر بأنه لم يسمع. تقدم حتى أمسك رجل إطفاء بذراعه.

— لا تدخل يا عم.

— في الداخل ممر خلفي. بابه يفتح إلى الفناء، ومنه درج الشقق.

— هل بقي أحد؟

نظر يوسف إلى الوجوه المجتمعة خلف الشريط. أم سلمان تحتضن ولدها الصغير، وصاحب البقالة يسند زوجته إلى الحائط، وسليم الحلاق حافي القدمين. لم ير أبا طارق.

— صاحب محل الساعات، قال إنه سيعمل الليلة. محله الثاني من اليمين.

لم يعد الرجل يسأله. تكلم في جهازه، ودخل اثنان من رجال الإطفاء من جهة الممر. وقف يوسف حيث تركه، ويده ممدودة قليلاً كأن ذراعه ما زالت في قبضة الرجل.

وصلت هند إليه. كان هاتفها في يدها والكاميرا مفتوحة، لكنها حين رأت أم سلمان أغلقت الشاشة.

— اتصلت بأمي. هي آتية مع خالي.

— لا حاجة أن تأتي.

نظرت إليه ولم تجبه. كان الذهب قد بلغ اللوح الخشبي فوق الورشة، اللوح الذي كتب عليه بيده قبل خمسة عشر عاماً: «ورشة يوسف للأبواب والأقفال». سقط حرف الفاء أولاً، ثم مال طرف اللوح حتى صار الاسم مائلاً فوق النار.

خرج المسعفون بأبي طارق بعد دقائق بدت أطول من الزقاق كله. كان واعياً، لكن قناع الأكسجين أخفى نصف وجهه. حاول أن يرفع يده حين رأى يوسف، ولم ترتفع إلا قليلاً.

مشى يوسف بمحاذاة النقالة.

— أنا هنا يا أبا طارق.

حرك الرجل أصابعه، ثم أدخلوه سيارة الإسعاف. أراد يوسف أن يصعد معه، لكن المسعف أغلق الباب وقال إن ابنه اتصل بهم وهو في الطريق.

حين تحركت السيارة، وجد نبيل واقفاً خلفه. كان قد لبس معطفه الخفيف فوق ثوب مجعد، وعلى وجهه أثر نوم لم يكتمل.

— أين بدأ الحريق؟

— لا أعلم.

— غرفة الملفات؟

التفت إليه يوسف ببطء.

— خرج أبو طارق حيًّا.

قال نبيل، وقد خفض عينيه:

— الحمد لله. أنا أسأل فقط... العقود كلها هناك.

— وكل الناس هنا.

لم يرد نبيل. تقدم خطوتين نحو الشريط، ثم عاد حين صرخ أحد رجال الأمن في الواقفين أن يبتعدوا. عند آخر الزقاق لمح يوسف رائد الكيلاني. لم

يكن يرتدي ثياب نوم، بل قيصاً أبيض وسترة خفيفة، كأنه خرج من اجتماع لا من بيت. كان يتكلم في هاتفه وينظر إلى السقف.

اتجه يوسف إليه. اعترضت هند طريقه من غير قصد، فتجاوزها.

— قلت إنك في آخر الشارع.

أنهى رائد مكالمته.

— كنت ماراً من الطريق العام. رأيت الدخان.

— وفي هذا الوقت مررت من هنا؟

— لست مضطراً إلى تبرير الطريق الذي أسلكه.

اقترب نبيل قبل أن يجيب يوسف.

— ليس الآن.

أعاد رائد الهاتف إلى جيبه، ثم نظر إلى المبنى نظرة طويلة.

— أخبرتكما أن المكان لم يعد يحتمل التأجيل.

لم يرفع يوسف صوته.

— وأخبرتكم أن التهديد لا يصير نصيحة إذا قيل بهدوء.

شد نبيل على ساعد أخيه.

— يوسف، ليس الآن.

هذه المرة رجع يوسف. ابتعد رائد إلى سيارته، وبقي حتى انخفض اللهب ثم غادر من غير أن يودع أحداً.

قرب الفجر، صار الدخان أخف، وتمكن رجال الإطفاء من فتح ممر ضيق أمام الورشة. لم يسمحوا لأحد بالدخول، لكن يوسف استطاع من خلف الشريط أن يرى باب الورشة الخلفي. كان مصراعه مفتوحاً، والحلق المعدني حول القفل سليماً.

سأل الضابط الذي خرج يحمل كيساً شفافاً:

— هل كُسر الباب؟

— لا يبدو ذلك. سنعرف بعد المعاينة.

كان في الكيس مفتاح أسود، تبدل منه قطعة بلاستيكية زرقاء ذاب نصفها. مد يوسف رأسه قليلاً، فعرف الخط الذي حفره على القطعة منذ سنوات: حرف الباء ورقم اثنين.

قال الضابط:

— لمن هذا؟

لم يجب يوسف فوراً. كانت لباب الورشة الخلفي، الذي يفتح غرفة المكتب أيضاً، ثلاث نسخ: واحدة في جيبه، وواحدة عند نبيل، والثالثة أعطاها لسامي يوم سمح له بإغلاق الورشة وحده. أما المدخل الجانبي المشترك فله مفتاح آخر، تبدل من نسخة نبيل قطعة جلدية بنية.

أخرج مفتاحه ووضعه في كف الضابط.

— هذا مفتاحي.

فتش نبيل جيوبه، ثم رفع مفتاحه أيضاً.

نظر الضابط من واحد إلى الآخر.

— والثالث؟

رفع يوسف بصره إلى النافذة السوداء فوق الورشة. منذ أن اتصل به رائد، اتصل يوسف بسامي أربع مرات. في كل مرة كان الهاتف يرن حتى ينقطع.

قال:

— مع الصبي الذي يعمل عندي.

ومن خلفهم جاء صوت صاحب المخبز، متردداً كأنه يخشى أن يفتح باباً آخر للنار:

— يا أبا هند... كاميرتي ترى المدخل الجانبي.



الفصل الثاني

قبل النار باثني عشر يوماً

كان يوسف يرفع مصراع الورشة عند الساعة إلا عشر دقائق، قبل أن تفتح المخازن أبوابها وقبل أن تمتلئ مواقف الحلي. لا يحتاج المصراع إلى كل ذلك الجهد، لكنه كان يئن في منتصف الطريق، فيضع يوسف كتفه تحته حتى يستقر فوقه، ثم يقول كل صباح إنه سيغير نابضه قبل نهاية الأسبوع. ولم يغيره.

في ذلك الصباح كانت أم سلمان تنتظره عند الرصيف، تحمل في يدها لسان قفل مكسوراً.

— باب الشقة لا يثبت. وضعت الكرسي خلفه في الليل.

أعاد يوسف المصراع إلى نصف ارتفاعه، وأخذ منها القطعة.

— أين سلمان؟

— في عمله. قلت له لا يترك يومه من أجل قفل.

— صدقت. سأمر بعد أن أفتح.

— وكم يكلف؟

نظر إلى القطعة، ثم إلى كيس الخبز في يدها الأخرى.

— نرى القفل أولاً.

قالت وهي تعرف هذه العبارة:

— لا تقل «نرى» ثم تنسى الحساب.

— ولن تنسيه أنت.

ابتسمت ومضت. رفع يوسف المصراع إلى آخره. وبعد دقائق ظهر سامي من طرف الشارع، وشعره مبتل كأنه غسل وجهه ورأسه في عجلة، وفي يده كيس من الخبز.

مر يوسف على شقتها قبل الظهر. لم يكن القفل كله تالفاً؛ انكسر اللسان وحده، وكان استبداله أقل من نصف ما خافت أن تدفعه. أخرجت له ورقتين نقديتين، فأخذ واحدة وكتب الباقي في دفتر صغير.

— قلت لك أحاسبك كاملاً.

— وهذا الحساب كامل. نصف اليوم ونصف آخر الشهر.

— وسلمان لا يعرف أنك تقسط لي.

— سيعرف من الورقة. لا أريد منك سرّاً، أريد ألا يبقى الكرسي خلف

الباب الليلة.

ترك لها نسخة من الحساب، وجرب القفل أمامها ثلاث مرات قبل أن يعود إلى الورشة. وجد سامي عند منضدته، وكيس الخبز إلى جواره.

— كم الساعة؟

— كنت هنا منذ السادسة والنصف، ثم ذهبت أخذ الفطور.

أخذ يوسف الكيس منه، وقلب الإيصال المثبت عليه. كانت ساعة الدفع مطبوعة أسفل المبلغ.

— دفعت عند السابعة وخمس دقائق، والخبز يبعد دقيقتين.

نظر سامي إلى الإيصال، ثم إلى الأرض.

— تأخرت عشر دقائق.

— قلها من أولها. ابدأ بإصلاح التأخر، ولا تضيف إليه كذبة.

لم ينتظر اعتذاراً. ناوله قائمة الأعمال، وأشار إلى باب خشبي مسند إلى الجدار.

— صنفر الطرف السفلي فقط. الزبون لا يريد لوناً جديداً.

لم يجادل سامي، ولم يعتذر مرة أخرى. حمل الباب إلى منضدته، وبدأ العمل من الطرف الذي أشار إليه يوسف.

دخل أبو طارق بعد الثامنة يحمل ساعة حائط ملفوفة بمشفة.

— أصلحتها لصاحبها، والآن لا أستطيع إغلاق صندوق العرض. هذه حرفة تجر أختها.

فحص يوسف مفتاح الصندوق.

— السن ملتوية. آتيك بعد الظهر.

— بعد ظهرك أم بعد ظهر الناس؟

ضحك سامي. قال يوسف:

— قبل أن تغلق.

— إذن أكتبها؛ ذاكرتك باب بلا مزلاج.

كتب يوسف اسم أبي طارق على اللوح الأبيض. كان تحته سبعة أسماء، لكل واحد منها موعد انتهى أو يوشك أن ينتهي. وقف يتأملها لحظة، ثم خط بجوار اسم أم سلمان دائرة حمراء.

وصلت هند عند العاشرة، وفي يدها ظرف صغير. وقفت عند الباب تنتظر أن يراها، لكنه كان يقيس إطاراً معدنياً لرجل من آخر الحي. رفعت الظرف فوق رأسها، فابتسم لها وأشار إلى الكرسي.

انتظرت حتى خرج الرجل.

— لا أريد كرسي الزبائن. أريدك في البيت عند السادسة.

— خير؟

— لو جئت عرفت.

فتح يده للظرف، فسحبته إلى صدرها.

— عند السادسة.

— سأكون هناك.

— قلت هذا يوم مناقشة مشروعى، ودخلت بعد أن انتهى كل شيء.

ترك شريط القياس على الطاولة.

— هذه المرة أصل قبل الطعام.

نظرت إلى اللوح المزدهم وراءه.

— امسح اسماً إذن.

— سأمسحها كلها.

لم تقتنع، لكنها ناولته الظرف. كان يحمل شعار مؤسسة إعلامية في مدينة أخرى. فتحه، فوجد عرض عمل باسمها. قرأ الراتب وموعد المباشرة، ثم رفع وجهه إليها.

— مبارك يا هند.

بدت فرحتها أقل مما توقع.

— أمي تعرف. نريد أن نتحدث في الانتقال والسكن. لا تقل الآن إننا
تدبر الأمر. تعال ونجلس.

— عند السادسة.

وضعت إصبعها على الورقة.

— ليس بعد السابعة.

خرجت، وبقي الظرف فوق المنضدة. وضع يوسف فوقه علبة مسامير
حتى لا تتمله مروحة السقف.

قبل الظهر بقليل دخل رجل لم يره من قبل، بملابس عمل نظيفة أكثر
مما تتحمله ورشة. لم يقدم نفسه. نظر إلى الواجهة والسقف والممر، ثم سأل
سامي:

— المبنى كله للأستاذ يوسف؟

أجابه يوسف من خلفه:

— نصفه لي. ماذا تريد؟

أخرج الرجل بطاقة ووضعها على الطاولة. «الروافد للتطوير — إدارة
الاستحواذ».

— الأستاذ رائد الكيلاني يريد موعداً معك ومع أخيك.

— في أي شأن؟

— شراء العقار.

— أخي يعرف؟

— هو من أعطانا رقمك.

ترك الرجل ملفاً رقيقاً، ثم انصرف. لم يفتحه يوسف حتى أنهى قفل أم سلمان وباب الرجل ذي الإطار المعدني. بقي صندوق أبي طارق على اللوح لآخر النهار. وحين جلس إلى الملف بعد العصر، وجد رقماً جعله يعيد قراءة الصفحة الأولى مرتين.

كان أعلى من قيمة المبنى في تقديره بكثير، لكن السطر الأخير كان أوضح من الرقم:

العرض مشروط بتسليم العقار خالياً من الشاغلين خلال ثلاثين يوماً.

اتصل بنيل. لم يرد. أرسل إليه صورة السطر، ثم أغلق الملف ووضعها في درج العقود.

عند الخامسة وخمسين دقيقة، جاءه صبي يقول إن أمه خرجت إلى السطح وانغلق باب الشقة على أخته الصغيرة. أخذ يوسف حقيبة الأقفال

وخرج معه. كانت العمارة في الطرف الآخر من الحي، وكان القفل قديماً يحتاج إلى فك لا إلى دفعة سريعة. حين فتح الباب كانت الساعة السادسة وأربعين دقيقة.

وجد على هاتفه ثلاث مكالمات من هند، ورسالة واحدة:

لا تأتِ مسرعاً. انتهينا.

عاد إلى البيت بعد الثامنة. بقي طبق الأرز في وسط المائدة وقد جف طرفه. كانت مريم في المطبخ، وهند في غرفتها والباب مغلق.

— فُتِحَ الباب؟ سألته مريم.

— نعم. كانت طفلة وحدها في الشقة.

— أعرف. أمها اتصلت تشكرك.

انتظر بقية الجملة.

قالت مريم:

— وهند لا تريد أن تمنعك من فتح باب لطفلة. كانت تريد فقط ألا تعرف من رسالة أنك لن تأتي.

جلس يوسف إلى المائدة ولم يمد يده إلى الطعام.

رن هاتفه. كانت رسالة من نبيل:

أنا في الطريق. لا ترفض العرض قبل أن تسمعني.



الفصل الثالث

نصف البيت

دخل نبيل حي السور بعد منتصف الليل، فاضطر إلى إبطاء سيارته عند المنعطف الذي ضاق بسبب سيارة توصيل ودراجتين وكرسي تركه أحدهم أمام الحلاق. لم يتغير الحي، قال في نفسه، ثم رأى واجهة زجاجية جديدة مكان محل الأقمشة الذي كان لأبي عارف، وأدرك أن ما لم يتغير هو فوضاه فقط.

كانت حقيبة الأوراق على المقعد المجاور. كلما توقفت السيارة عند إشارة وضع يده عليها، لا لثلاث تسقط، بل كأن لمسها يمنع الأرقام في داخلها من الزيادة.

ثلاثة رواتب متأخرة. فاتورتان لمورد الحديد. قسط بيت يستحق بعد سبعة عشر يوماً. وشريك سابق لم يعد يرد إلا برسائل يذكر فيها كلمة «المحكمة».

باع نبيل سيارته الكبيرة قبل شهر، وأخبر الجميع أنه ملّ مصروف الوقود. كانت السيارة الصغيرة التي يقودها مستأجرة، ورائحة المعطر الحاد فيها لا تشبهه. لم يقل لزوجته إن حساب المؤسسة بقي فيه ما يكفي لأسبوع

واحد. ولم يقل ليوسف شيئاً حتى جاءه رائد الكيلاني برقم لا يسمح لرجل غارق أن يتظاهر بأنه لا يرى الحبل.

كان الضوء مشتعلًا في بيت أخيه. فتحت له مريم، وسلمت عليه من غير سؤال. وجد يوسف في الصلاة وحده، وإلى جواره ملف العرض مفتوحًا.

— أين هند؟

— نامت.

عرف نبيل من قصر الجواب أن شيئاً وقع قبل وصوله، لكنه لم يسأل. خلع معطفه ووضع حقيبته على الأرض.

— قرأت الرقم؟

— قرأت الشرط.

— والرقم؟

— لا يشتري حق الناس في شهر.

جلس نبيل قبالة.

— الناس يدفعون إيجاراً، ولسنا نطردهم إلى الشارع الليلة. الشركة

ستعوض من له عقد.

— ومن ليس عقده واضحاً؟ ومن جددنا له بالكلام لأنك كنت مسافراً
وأنا كنت أقول إن الورق غداً؟

— هذا خطؤك، لا خطئي.

أصابته الجملة في موضع عرفه نبيل من وجهه. لم يفرح بذلك، لكنه لم
يتراجع.

— العقار نصفان، يا يوسف. منذ مات أبي وأنت تتصرف كأن بقاءك
هنا جعلك صاحبه كله.

— وأنا أحول لك نصيبك كل شهر.

— نصيبي من الإيجار، لا نصيبي من القرار.

فتح نبيل الحقيبة، وأخرج كشفاً بعد آخر. وضعها أمام أخيه مرتبة
بحسب الاستحقاق.

— انظر. لا أطلب أن أبيع لأشتري مزرعة. هؤلاء رجال عملوا معي.
إن لم أدفع رواتبهم فأنا آكل أيامهم. وهذا قسط البيت. وهذا دين المورد.
بعت السيارة وسددت جزءاً، ولم يبق عندي شيء أبيعته إلا حصتي هنا.

تناول يوسف الورقة الأولى. قرأ اسم العامل والمبلغ، ثم انتقل إلى

الثانية.

— لماذا لم تقل من قبل؟

ضحك نبيل ضحكة قصيرة.

— لأنك ستفعل ما تفعله الآن. تنظر إلى كل اسم حتى يصير صاحبه واحداً من أهل حيك، ثم تقول أعطني وقتاً.

— وكم يعطيك العرض فوق حاجتك؟

— لا شأن لك بما فوقها. كما أنه لا شأن لي أين تصرف ربح الورشة.

— لي شأن إذا كان الثمن أن تخرج أربع أسر وأصحاب ثلاثة محال في ثلاثين يوماً.

مال نبيل إلى الأمام.

— وأنا؟ ليس لي موضع في هذه القائمة؟

سكت يوسف، وضاق فيه بالطريقة التي عرفها نبيل منذ صغرهما. خُيِّل إلى نبيل أنه يسمع الاعتراضات التي لم يقلها أخوه: أنه وسع مشروعه بالدين، وأنه حُذر من شريكه، وأن البيت الذي يخشى قسطه أكبر مما يحتاج. كانت أجوبة جاهزة، لكنه رأى يوسف يتركها ولا ينطق بها.

قال:

— لك حقك كاملاً. أعطني وقتاً أعرف به حقوقهم، ونطلب تقييماً آخر.

— عرض الروافد ينتهي خلال واحد وعشرين يوماً.

— والرجل يريد عقاراً خالياً خلال ثلاثين. هذا وحده يجعلني أسأل لماذا يدفع كل هذا.

— لأنه يجمع القطع المجاورة. المشروع أكبر من بيتنا.

— إذن لن يهرب في أسبوع.

— قد يشتري من غيرنا ويلتف حولنا. وعندها تبقى لي حصة لا أجد من يأخذها.

أغلق يوسف الملف.

— غداً نمر على السكان، ونراجع العقود، ثم نجلس معه.

— أنت تريد أن تستأذنيهم في بيع ملكنا.

— أريد أن أعرف ما يلزمنا قبل أن نعد بما لا نملك.

دخلت مريم تحمل إبريق الشاي. وضعت كوبين وانصرفت من غير أن تجلس. تبعها بصر نبيل، ثم قال بصوت أخفض:

— هل أخبرتها كم دفعت من جيبيك عن المتأخرين؟

رفع يوسف عينيه.

— ليس هذا موضوعنا.

— بل هو الموضوع نفسه. تظن أن ما تخفيه عن بيتك يصبح خيراً لمجرد أنك دفعته لبيت آخر.

وقف يوسف.

— نكمل صباحاً.

عرف نبيل أنه انتهى من الكلام، كما كان أبوهما يفعل حين يخشى أن يقول ما يندم عليه. أخذ أوراقه ووضعها في الحقيبة، لكنه ترك صورة العرض على الطاولة.

في الصباح مشيا في العقار معاً. كانت أم سلمان تنشر ثياب أطفالها في الفناء، وأبو طارق يفتح محله، وسامي يدفع المصراع المتعب بكتفه. توقف كل واحد منهم ليسلم على يوسف أو يسأله عن عمل، بينما كان نبيل يمشي إلى جواره كضيف يعرفه المكان ولا يعرفه الناس.

في الشقة العليا، أخرجت أم زياد إيصالات مربوطة بخيط مطاطي. كان آخر عقد مكتوب لها قبل ثماني سنوات، وبعده إيصالات بخط يوسف. قال نبيل وهو يقلبها:

— هذا لا يكفي لترفض بيعاً.

أعاد يوسف الأوراق إليها.

— لكنه يكفي لألا نوقع قبل أن يسأل عنها من يعرف.

عند الظهر جلسا مع رائد في مكتب زجاجي يطل على مجسمات أبراج
بيضاء. شرح الرجل المشروع والطريق الجديد ومواقف السيارات، ثم دفع
إليهما ورقة تسمح لفريق فني بمعاينة المبنى.

— المعاينة لا تلزمكم بالبيع، قال رائد. لكنها توفر علينا الأيام إن اتفقنا.

قرأ يوسف الورقة ولم يوقع.

أما نبيل فوضعها في حقيبته.

حين خرجا، قال يوسف:

— لا يدخل أحد حتى نعرف من هو وماذا سيفعل.

— ورقة معاينة، لا عقد بيع.

— إذن لا يضر أن ننتظر.

توقف نبيل عند سيارته.

— كل انتظار عندك سهل لأن الدائن لا يطرق بابك.

قاد بعيداً قبل أن يجيبه يوسف. وفي أول محطة وقود أوقف السيارة، وأخرج ورقة المعاينة، ووقع أسفلها. صورها بهاتفه وأرسلها إلى رائد. جاءه الرد بعد أقل من دقيقة:

ممتاز. سيدخل الفريق من غير تعطيل لأحد.

ظل نبيل ينظر إلى العبارة الأخيرة. أراد أن يسأل ما المقصود بـ«من غير تعطيل»، ثم رأى في أعلى الشاشة إشعاراً جديداً من أحد عماله يسأله عن الراتب.

أغلق المحادثة ووضع الهاتف مقلوباً.



الفصل الرابع

المفتاح الثاني

في صباح الخميس، أخرج يوسف من الدرج مفتاحاً جديداً، وكتب على قطعته البلاستيكية الزرقاء حرف الباء ورقم اثنين. كان الرقم يخص الباب، لا عدد النسخ؛ فنسخة عنده، وأخرى عند نبيل منذ كانا يتناوبان تحصيل الإيجارات، وهذه الثالثة ستبقى مع سامي.

لم يكن القرار وليد ذلك الصباح وحده. طوال الأسابيع الثلاثة السابقة، وصل سامي قبل الموعد في أكثر الأيام، وأعاد الباقي من مشتريات الورشة إلى الدرهم الأخير، وطلب أن يتعلم تركيب الأقفال الدقيقة بدل الاكتفاء بجمل الأبواب. وحين غاب يوسف ساعتين لإيصال مريم إلى موعدهما، وجد الصندوق في موضعه والطلبات منجزة.

ناداه من آخر الورشة.

— اترك الباب الذي بيدك وتعال.

مسح سامي نشارة الخشب عن ساعديه، واقترب. وضع يوسف المفتاح في كفه.

— للمدخل الخلفي وغرفة المكتب. المصراع الأمامي له مفتاح آخر.

قلبه سامي بين أصابعه.

— سأفتح وحدي؟

— غداً عندي موعد، وقد أتأخر. تفتح في السابعة، ولا يدخل غرفة المكتب أحد.

ذهب به إلى الممر، وجعله يجرب القفل. أدخل سامي المفتاح مقلوباً أول مرة، ثم عدله، وأدار اللسان المعدني. فتح الباب، وأغلقه، وجذبه ليتأكد من ثباته.

قال يوسف:

— لا تعطه أحداً، ولا تصنع منه نسخة. إن ضاع، نتصل بي قبل أن تبدأ البحث عنه.

— حاضر.

جاءهما صوت آلة الصنفرة من الداخل. كانت تدور فارغة بعدما ترك سامي مفتاحها على وضع التشغيل. أسرع إليها وفصلها، ثم وقف بجانبها ينتظر.

وضع يوسف يده على غطاءها. لم يكن المحرك قد سخن.

— عندما تتركها تفصل القابس.

— نسيت دقيقة.

— والدقيقة تكفي لتفسد آلة، أو يدًا.

لم يسحب منه المفتاح. عاد إلى الطاولة الكبيرة حيث تراكمت أقفال الشقق، وكل واحد منها مربوط بورقة صغيرة تحمل اسم صاحبه ورقم هاتفه. بقي سامي عند الآلة لحظة، ثم وضع المفتاح في حلقتة وأغلقها بأصابعه مرتين. دخل أبو طارق يحمل صندوق ساعة حائط مفككة، وقال قبل أن يكمل السلام:

— عندك خشب خفيف لهذا الظهر؟ صاحبها يريد ساعة جده كما كانت، ويريدها غدًا، ويريد ألا يدفع.

أخذ يوسف الصندوق منه، وقاسه بعينه.

— عندي قطعة سدر، لكنها أثقل.

— إذا أعطيته سدرًا قال غيّرت روح الساعة.

لمح أبو طارق المفتاح في حلقة سامي.

— صرت تفتح وتغلق يا ولد؟

قال يوسف:

— سيفتح الصباح إن تأخرت.

سكت أبو طارق لحظة قبل أن يقول:

— أنت أعرف به.

سمع يوسف ما وراء العبارة. طلب من سامي ريشة الحفر الرفيعة، ثم اتجه بنفسه إلى العلبة الحمراء. كانت أربع ريش جديدة في أغلفتها، وعلى كل واحدة خط رسمه بقلم الطلاب.

فتح درجاً صغيراً وأخرج ورقة مطوية. فيها قائمة الأدوات التي اختفت قبل خمسة أشهر، وقيمة كل واحدة، وأسفلها أسابيع العمل الإضافي التي اتفق عليها مع سامي. لم يكتب في الورقة كلمة سرقة، ولم يحتج إليها. يوم أعاد سامي الأدوات في كيس بقالة، عدّها يوسف على الطاولة، وسأله عما بيع منها، ثم وضعها طريقة لرد ثمن الناقص.

كان أمام الأسبوع الأخير مربع خالٍ. وضع يوسف علامة فيه وكتب التاريخ، ثم ناول الورقة لسامي.

— انتهى ما عليك للورشة.

لم يمد سامي يده.

— خذها.

أخذها وطواها مرة أخرى.

تحرك أبو طارق نحو الباب.

— أعود بعد العصر.

أمسك يوسف صندوق الساعة من طرفه.

— اتركه. سيكون جاهزاً.

خرج أبو طارق، وبقي صوت الساعات يتردد من محله المجاور، نقرات كثيرة لا تتفق على ثانية واحدة.

قال سامي:

— كان يمكن أن تعطيني المفتاح بعد مدة.

— كان يمكن.

— وبعد الذي صار؟

أشار يوسف إلى الورقة في يده.

— الذي صار لم يختف. أنت رددت ما أخذت، وتحملت ما اتفقنا

عليه. إن كنت لا أستطيع أن أأتمنك، فلا معنى لبقائك هنا. وإن بقيت، فبقواعد واضحة.

انتظر سامي، لكن يوسف حمل الساعة إلى منضدة القص.

قال سامي:

— وإذا بعتم المكان؟

توقف يوسف.

— من قال إننا بعنا؟

— الناس تتكلم. يقولون الشركة ستأخذ الصف كله.

— إذا جاء قرار يخص عملك، ستسمعه مني.

— وقد لا يبقى لي عمل وقتها.

لم يعده يوسف بما لا يملكه. أخرج كراسة فيها اسم ورشتين طلبتا عمالاً،
وكتب رقمين على ظهرها.

— إن أغلقت الورشة، لن أخفي عنك يوماً واحداً. وهذان يعرفان
عملك.

أخذ سامي الكراسة ووضعها تحت الورقة المطوية.

— أنا لا أريد أن أبقى عاملاً طول عمري.

— إذن تعلم الحساب مع الصنعة. الورشة لا تقوم بالفتح وحده.

— هات قطعة الصدر. نقص منها نصف سنتيمتر، ولا تشغل الصنفرة حتى أعود.

خرج يوسف لإصلاح باب في الشقة العليا، ثم مضى إلى متجر الأدوات ليشتري علبة براغ. تأخر أكثر مما قدر، وعاد بعد أن بدأت المحال تغلق. وجد المصراع منخفضاً إلى نصفه، والورشة مرتبة، وصندوق الساعة فوق طاولة أبي طارق.

لم يجد سامي.

حمل ملف العرض الذي نسيه في الدرج، وأطفأ الضوء. حين خرج من الممر الخلفي رأى سامي عند سيارة سوداء تقف قرب المخبز. كان يتحدث إلى رجل بقميص رمادي وبطاقة معلقة في عنقه. لم يسمع يوسف سوى آخر جملة قالها الرجل:

— فكر في رزقك قبل أن يغلقوا المكان.

مد الرجل بطاقة صغيرة. أخذها سامي، ثم التفت فرأى يوسف عند الباب. تحركت يده إلى جيبه بسرعة، واختفت البطاقة.

فتح الرجل باب السيارة. ظهر على البطاقة المعلقة في عنقه شعار «الروافد» قبل أن يستدير.

قال يوسف:

— من هذا؟

— يقول إنهم سيحتاجون عمالاً في المشروع الجديد.

— وجاء يختارك من الممر؟

هز سامي كتفيه.

— وجدني هنا.

انتظر يوسف أن يزيد شيئاً. لم يفعل.

— هل طلب منك عمالاً الآن؟

— لا.

كان الجواب سريعاً، لكنه لم يحمل ما يستطيع يوسف أن يمسك به. نظر إلى حلقة المفاتيح عند حزام سامي. تدلت منها القطعة الزرقاء الجديدة إلى جوار مفتاحين قديمين.

قال:

— إن طلب منك أحد شيئاً يخص الورشة، يطلبه مني.

— حاضر.

— لم أسألك إن كنت توافق. قلت لك ما تفعل.

رفع سامي عينيه إليه.

— فهمت.

قفل يوسف الباب، وجرب المقبض. سار الاثنان حتى آخر الممر، ثم
افترقا عند الشارع. بعد خطوات التفت يوسف، فرأى سامي يضع يده في
جيبه حيث أخفى البطاقة.

فتح فيه ليناديه، ثم أغلق الباب ومضى.



الفصل الخامس

تصريح بالدخول

في صباح الجمعة، بعد اثني عشر يوماً من وصول العرض، وضعت هند هاتفها على حافة النافذة، وأسندته بعلة مسامير كي تبقى العدسة في مستوى الطاولة. لم تكن تريد تصوير الاجتماع، بل كانت تختبر إطاراً لمقطع عن الحرف القديمة في حي السور. ظهر في الشاشة نصف وجه أبيها، ويد عمها نبيل، وباب المكتب الذي صنعه جدها قبل أن تولد. أما رائد الكيلاني فجلس في الموضع الوحيد الذي لا تدخله الشمس.

قالت مريم من الباب:

— اتركي الهاتف وساعديني في القهوة.

— يسجل عشر ثوان فقط.

— والضيف لا يعرف أنها عشر.

أوقفت هند التسجيل. كانت قد أخبرت أباها أن لديها جلسة عبر الإنترنت بعد ساعة لاستكمال عقد عملها، وأنها تريد منه مراجعة ملف أعمال سترسله قبل الجلسة. أوماً وهو يفتح لرائد، ولم تعرف هل سمع الساعة أم اكتفى برؤية حركة شفتيها.

حملت صينية القهوة إلى المكتب. نهض رائد نصف نهوض، وشكرها باسمها مع أنه لم يقابلها من قبل. كان أمامه ملف جلدي رقيق، وكتيب مطبوع عليه رسم لمبان زجاجية تتوسطها أشجار لا تشبه أشجار الحي. قال لها:

— تخصصك إعلام رقمي، صحيح؟ ستعجبك رؤيتنا للمكان.

توقفت يدها فوق الصينية.

— وجدت ملف أعمالك المنشور حين بحثنا عن اسم العائلة، قال، كأنه يجب سؤالاً لم تنطقه.

فتح الكتيب على صورة بعنوان «الوجهة الجديدة». كانت زاوية الرسم هي الزاوية نفسها التي تقف عندها عربة بائع الذرة كل مساء، لكن المصمم حذف العربة، وحذف محل أبي طارق، ووضع مكانهما مقهى بواجهة سوداء. وضعت هند الفنجان أمامه وجلست قرب الباب.

دفع رائد ورقة إلى منتصف الطاولة.

— هذا تعديلنا الأخير. السعر كما اتفقنا، والمهلة ثلاثون يوماً من توقيع العقد النهائي. نحتاج قبل ذلك إلى معاينة فنية كاملة، وصور العقود، وجدول الإشغال.

قال يوسف:

— لم تتفق على الإخلاء.

— العرض مبني على تسليم العقار خالياً.

— أعرف على ماذا بني. أقول إننا لم نتفق.

تحرك نبيل في مقعده. كانت عيناه حمرانين من ليال لم ينم فيها جيداً، وعلى الطاولة أمامه كشف مطوي لأجور عمال مشروعه. قال:

— لا أحد يقول نخرجهم غداً. أماننا شهر، ونعطي كل واحد حقه.

نظر يوسف إلى رائد.

— ما الذي تسميه حقه؟

— ما يلزمه العقد وما تقرره الجهة المختصة.

— عندنا عقود تنتهي في أوقات مختلفة، ومبالغ صيانة دفعها أصحاب

المحال، وأسر لا تستطيع أن تنتقل في ثلاثين يوماً. نحصر هذا أولاً، ثم نتكلم.

أدار رائد فنجانه من غير أن يشرب.

— كل تأخير ينقص من قيمة العرض. الشركة لا تشتري حكايات،

بل أصلاً عقارياً له تكلفة وزمن.

لم تعجب هند العبارة، لكن وجه عمها جعلها تفهم لماذا لم يعترض. بدا لها أنه لا يرى في الورقة إلا عدد الرواتب التي يستطيع دفعها. أما أبوها فكان يقلب الصفحات ببطء، ويضع ظفره تحت كل سطر كأن أحداً سيحاسبه على ما تجاوزه.

أخرج رائد نسخة من تصريح المعاينة. ظهر توقيع نبيل في أسفلها.
رفع يوسف عينيه إلى أخيه.
قال نبيل:

- معاينة فقط. لا بيع ولا إخلاء.
- قرأ يوسف الورقة كاملة، ثم وضع إصبعه على الفقرة الأخيرة.
- «فحص المرافق واتخاذ ما يلزم للتقييم». ما الذي يلزم؟
- قياسات وصور واختبار سلامة، قال رائد.
- تكتب ذلك. ويكون واحد منا حاضراً.
- الفريق يعمل بحسب جدول المواقع. قد يتأخر أو يتقدم.
- إذن يتصل.
- تنفس نبيل بقوة.

— يوسف، هذا تفتيش عدادات، لا فتح خزانة.

— ولهذا لا ينبغي أن يصعب تحديد مواعده.

سحب رائد الورقة، وشطب العبارة العامة، ثم كتب بخطه: «يقتصر الدخول على المرافق المشتركة والمعاينة البصرية وأخذ القياسات، دون نزع أو تبديل أو تشغيل أي جزء، مع إشعار أحد المالكين». وقع تحت الإضافة، ودفع القلم إلى نبيل، فوضع أحرف اسمه إلى جوارها.

قال رائد:

— توقيع مالك النصف يكفي لدخول الأجزاء المشتركة. أما البيع فلن يتم من دونكما.

قال يوسف:

— مفتاح المدخل الجانبي مع نبيل. لا يدخلون الورشة ولا الشقق.

أخرج نبيل مفتاحاً عليه قطعة جلد بنية، ووضعه قرب الورقة.

— يستلمونه ساعات ويردونه.

التفت يوسف إلى هند.

— صوري التصريح بعد الإضافة، وصوري المفتاح معه.

رفعت هاتفها والتقطت الورقة من أعلى، ثم اقتربت حتى ظهر خط رائد واضحاً. صورت المفتاح أيضاً، لا لأنها رأت في ذلك أهمية، بل لأن أباهما قال: «كل ما خرج من اليد».

ابتسم رائد وهو يعيد أوراقه إلى الملف.

— هذه الدقة ستعجبكم في مشروع كبير.

قال يوسف:

— سنفعلها مع ذلك.

نهض رائد، ثم وقف عند الباب وقال:

— أمامكما حتى نهاية اليوم. بعد ذلك سنستكمل شراء القطع من حولكما، وقد تجدون عقاركم محاصراً بالمشروع ولا يساوي نصف ما أمامكم الآن. السوق لا ينتظر المتردد.

قال يوسف:

— قل إنكم ستسحبون العرض. لا تجعل حسابكم تهديداً لنا.

— سمه ما تشاء. أنا أخبرك بما سيحدث.

صافح نبيل، ومد يده إلى يوسف. صافحه يوسف من غير أن يرد على العبارة. وحين مر رائد بهند أعطاهما الكتيب.

— احتفظي به. ربما تصنعين لنا يوماً حملة للمشروع.

نظرت إلى الواجهة الزجاجية التي حلت مكان محل أبي طارق.

— ربما أصنع شيئاً عنه.

بعد خروجه، طلب نبيل من يوسف ألا يحول كل خطوة إلى خصومة. أجابه يوسف بأن التوقيع تم، فلا خصومة. قال نبيل إن هذه مشكلته: يتكلم بهدوء يجعل الآخر يبدو وحده غاضباً.

انتظرت هند أن يرد أبوها، لكنه جمع الفناجين ووضعها على الصينية.

قالت له:

— جلستي بعد خمس وعشرين دقيقة.

توقف، ونظر إليها كمن تذكر وعداً مكتوباً في مكان لا يراه.

— أحتاج عشر دقائق مع عمك، ثم أراجع الملف.

— أرسلته قبل قليل.

— قلت إنك تريد رأيي.

— كنت أريده أمس.

حملت هاتفها وكتيب رائد، وخرجت. في الممر سمعت عمها يسأل:
«وإذا لم ينتظروا؟» وسمعت أباها يجيبه: «لا نطلب من الناس أن يوقعوا قبل
أن يعرفوا حقهم». أغلقت الباب، ولم تعرف هل كان يتحدث عن
المستأجرين أم عنهم جميعاً.



عادت هند بعد الحادية عشرة من مساحة العمل التي أجرت فيها
الجلسة. لم تسر كما أرادت؛ انقطع الصوت مرة، ثم فتحت ملفاً قديماً بدل
النسخة الأخيرة. كان معظم حي السور قد أغلق أبوابه، وبقي ضوء الخبز
مسكوباً على الرصيف.

قبل أن تنعطف إلى مدخل البيت، رأت مركبة صيانة بيضاء داخل
الممر الجانبي للعقار. حجت نصف الطريق، واضطر عامل الخبز إلى حمل
أكياس الدقيق من حولها. على باب المركبة ملصق أزرق: «المدى للخدمات
الفنية».

وقف رجل عند غرفة العدادات، وركع آخر أمام صندوق الكهرباء
المفتوح.

قالت:

— من سمح لكم بالدخول؟

رفع الرجل الواقف هاتفه. ظهرت عليه صورة التصريح، وفي أسفلها توقيع نبيل والإضافة المكتوبة بخط رائد.

— معاينة للروافد. بقيت نصف ساعة.

— الآن؟

— في النهار المحال مفتوحة والحمل أعلى. هذا الوقت أهدأ للفحص.

كان المفتاح ذو القطعة الجلدية البنية معلقاً في باب المدخل. أرسلت هند إلى عمها صورة المركبة وسألته: «هؤلاء بتصرّيحك؟» جاءها الرد بعد لحظات:

نعم. أخبروني أنهم تأخروا. دعيم ينهون ولا توقظوا يوسف.

رفعت هاتفها وصورت المركبة مرة أخرى. في اللحظة نفسها صدر من غرفة العدادات صوت قصير، كفرقة حبة ذرة داخل قدر.

— ما هذا؟

قال الرجل الراكع من غير أن يلتفت:

— قاطع قديم. لم نلبس إلا الغطاء.

انطفأ مصباح الممر، ثم عاد. نظر العاملان أحدهما إلى الآخر. قال
الواقف:

— انتهينا تقريباً.

صعدت هند الدرج. عند البسطة الأولى التفتت، فرأت حقيبة
الأدوات تُحمل إلى المركبة، والمفتاح لا يزال في الباب. كان معهم تصريح،
واسم شركة، ورسالة من عمها. أكملت صعودها، وفتحت حاسوبها لتصلح
الملف الذي أخطأت في إرساله.

خلف النافذة ارتجف ضوء الممر مرة ثانية، ثم استقر.



الفصل السادس

الملف الناقص

خرج يوسف من غرفة أبي طارق حين بدأت الشمس تبيض خلف زجاج المستشفى. قال الطبيب إن أثر الدخان أشد من الحرق الذي في ساعده، وإنهم سيبقونه تحت المراقبة حتى المساء. كان أبو طارق واعياً بما يكفي ليسأل عن محل الساعات، ثم يغفو قبل أن يسمع الجواب كاملاً.

قال له يوسف إنهم لم يسمحوا لأحد بدخول المحال بعد. لم يقل إن الماء الأسود ملأ أرض متجره، وإن واجهته الزجاجية سقطت إلى الداخل، وإن عشرات الساعات توقفت في أوقات مختلفة. هو نفسه لم يعرف بعد ما نجا. في الممر، كانت مريم نائمة على المقعد وذراعاها معقودتان فوق حقيبتها. جلست هند إلى جوارها، تحديق في هاتفها من غير أن تحرك إصبعها. نهضت حين رأت أباها.

— كيف هو؟

— سيبقى إلى المساء.

— هل تكلم؟

— سأل عن الساعات.

أغلقت هند عينيها لحظة.

رن هاتف يوسف. كان الرقم نفسه الذي اتصل به بعد الفجر؛ محقق الحريق الذي طلب وجود أحد المالكين عند المعاينة الأولى. رد، واستمع، ثم قال إنه سيصل خلال عشرين دقيقة.

استيقظت مريم على صوته.

— لن تعود إلى البيت؟

— أحتاج أن أدخل المكتب. عقود السكان وأرقامهم هناك.

قالت هند:

— آتي معك.

نظر يوسف إلى ثيابها التي بقي فيها رماد الليل، ثم إلى أمها.

— خذي أملك أولاً.

— عمي نبيل عند العقار. أوصلها ثم ألحق بك.

لم يجادلها. كان قد جادلها بما يكفي من غير أن يقصد، كلما قال «بعد قليل» حتى صار القليل موعداً لا يثق به.



لم يعد الشارع أمام الورشة شارعاً. شريط أصفر امتد من عمود المخبز إلى شجرة السدر، وسيارة إطفاء بقيت قرب الرصيف، ورجال يدخلون ويخرجون بأغطية أحذية بيضاء. وقف أصحاب الشقق في الطرف الآخر يتابعون النوافذ المسودة، وكل واحد منهم يحمل سؤالاً لا يملك يوسف له جواباً.

أوقفته أم سلهان قبل الشريط.

— قالوا لا نعود إلى الشقق. إلى متى؟

— إلى أن ينتهي فحص السلامة.

— الليلة أين نذهب؟

فتح يوسف فمه، ثم أغلقه. نظر إلى الحقيبة الصغيرة عند قدميها.

— لا أعرف بعد. سأطلب منهم جواباً مكتوباً اليوم، وإن طال الإغلاق نجتمع قبل الظهر ونرتب السكن المؤقت. لا توقعي لأحد شيئاً حتى تتكلم.

أشارت إلى رجلين وقفنا قرب سيارة لا يعرفها.

— هذان سألانا إن كنا نريد تعويضاً سريعاً.

نظر إليهما يوسف. ابتعد أحدهما بعينه.

— خذي رقبتهما فقط. لا صورة هوية ولا توقيع.

كان نبيل داخل الشريط يتحدث إلى المحقق. لوح ليوسف، وفي يده كيس شفاف وضع فيه مفتاح المدخل الجانبي ذا القطعة الجلدية. قال إن أحد عمال المعاينة أعاده إليه بعد انتهاء الفريق ليلاً.

سأل المحقق يوسف عن آخر مرة دخل فيها المكتب، وعن المواد الموجودة في الورشة، وعن أعمال الكهرباء الأخيرة. أجاب عن كل سؤال بقدر ما يعرف. أخبره أن الخشب ومواد الطلاء محفوظة في خزانة معدنية بعيدة عن غرفة العدادات، وأن قاطع الورشة فُحص قبل أشهر، ولم يطلب أحد إصلاحاً جديداً.

قال المحقق:

— سمنر من الخلف. لا تلمس شيئاً، وإذا أردت أخذ أوراق تشير إليها أولاً.

دخل يوسف خلفه. كانت رائحة الخشب المحترق مختلفة عن أي رائحة عرفها في عمله؛ لا تشبه نشارة سقطت على آلة ساخنة، ولا باباً قديماً أكلت النار طرفه. كانت رائحة مكان فقد أسماء الأشياء. اسود السقف فوق منضدة القص، وتدلّت أسلاك المصابيح مثل حبال مبتلة. أما باب المكتب فبقي قائماً، وقد انتفخ أسفله من الماء.

دفعه المحقق بقفازه. لم يكن مقفلاً.

قال يوسف:

— تركته مقفلاً.

نظر الرجل إلى اللسان المعدني، ثم إلى الإطار.

— لا كسر هنا.

في الداخل انقلب كرسي واحد، وسقطت الملفات من الرف الأعلى حين اندفع الماء. رقع يوسف قرب الخزانة القصيرة. كانت فواتير الموردين في موضعها، ودقتر الأجور تحتها، وصندوق الإيصالات في الدرج. مد يده، فتوقف حين قال المحقق:

— أشر فقط.

أشار إلى فراغ بعرض كف بين ملفين.

— هنا كان ملف أزرق.

— ماذا فيه؟

— أصول عقود المحال والشقق، وملحقات الصيانة، وإيصالات قديمة.

اقترب نبيل من الباب.

— ربما أخذته إلى البيت.

- لم آخذه.
- أو نقلته هند للتصوير.
- لم تفعل.
- سجل المحقق العبارة، ثم سأل:
- من يعرف مكانه؟
- أنا، ونبيل، وسامي. وربما رآه غيرنا حين نخرج الأوراق.
- ومن يستطيع دخول المكتب؟
- نظريوسف إلى القفل السليم.
- مفتاح باب الورشة الخلفي له ثلاث نسخ: واحدة معي، وواحدة مع نبيل، والثالثة أعطيها سامي. ومفتاح المدخل الجانبي كان مع فريق المعاينة أمس ساعات.
- التفت نبيل إليه.
- سامي معه نسخة؟
- منذ أيام.
- ولم تقل لي؟

— يعمل هنا ويفتح إذا تأخرت.

بدا أن نبيل سيقول شيئاً آخر، لكنه رأى المحقق يكتب، فسكت.

خرجوا إلى غرفة العدادات. أضواء الفني مصباحاً صغيراً داخل الصندوق المحترق، وصور مواضع متقاربة. كان جزء من الغطاء قد انصهر، لكن برغيين عند الحافة بقي عليهما لمعان فضي تحت السواد.

سأل الفني:

— فُتح هذا الغطاء قريباً؟

قال نبيل:

— كانت هناك معاينة أمس.

رفع المحقق رأسه.

— أي معاينة؟

وصلت هند في اللحظة نفسها، وسمعت السؤال. وقفت خارج الغرفة

وقالت:

— فريق يتبع شركة الروافد. رأيتهم هنا بعد الحادية عشرة.

استدار يوسف إليها.

— رأيهم؟

— كانت معهم صورة التصريح ومفتاح عمي. قالوا إنها معاينة بصرية.

أخرجت هاتفها، وبحث عن صورة الورقة ثم صورة المركبة. أخذ المحقق الهاتف بإذنها، وكبّر المصق على الباب ورقم اللوحة. قال الفني إن آثار الفتح لا تثبت وحدها أن أحداً عبث بالتوصيلات؛ قد تكون من المعاينة، أو من عمل قديم، أو مما حدث أثناء الإطفاء. سيحتاجون إلى فحص كامل قبل قول شيء.

طلب المحقق أن ترسل إليه صورة المركبة، فأرسلتها من شاشة المشاركة في الهاتف.

سأل يوسف:

— هل بدأ الحريق من هنا؟

قال المحقق:

— لا جواب الآن.

كان هذا أول جواب صريح سمعه يوسف منذ الليل.

أعاد المحقق السؤال عن المفاتيح، فكرر يوسف الأسماء نفسها، ثم وقع على ما دُون.

حين خرجوا، نظر يوسف إلى الساعة المعلقة فوق باب الخبز. تجاوز الوقت التاسعة، وسامي لا يتأخر عن الثامنة إلا إذا اتصل. أخرج هاتفه. كانت رسالته الأخيرة إليه في الليلة السابقة: «وصلت؟» وتحتها جواب سامي: «نعم».

اتصل. جاءه صوت آلي يخبره أن الهاتف مغلق.

اتصل مرة أخرى، ثم أرسل:

سامي، اتصل بي حالاً. لا تذهب إلى أحد ولا تسلم أحداً شيئاً.

قرأ الجملة قبل أن يرسلها. حذف الجزء الأخير، ثم أعاده وضغط إرسال.

رفع رأسه. كان كل من عرف بالحريق قد مر من الشارع، أو اتصل،

أو أرسل من يسأل. وحده سامي، صاحب النسخة الثالثة، لم يظهر.



الفصل السابع

وجه على الزجاج

كان صاحب المخبز أحد مديري مجموعة الحي. قبل أن يعيد المقطع من بدايته، قال إن ابنه، الذي ضبط نظام الكاميرا ويستطيع فتحه من حاسوبه، أرسل إليه لقطة قبل دقائق وسأله إن كان الرجل سامي. رد عليه ألا يرسلها إلى أحد، ولم تظهر علامة قراءة الرسالة. بقيت هند واقفة خلف كتفه. لم يتجاوز زمن اللقطات التي حفظها الجهاز إحدى عشرة دقيقة؛ كان يتوقف حين تسكن الصورة، فيتحول الممر إلى مشاهد منفصلة لا إلى زمن متصل.

ظهر باب الورشة الخلفي في الزاوية اليمنى، واحتلت واجهة المخبز الزجاجية نصف الشاشة. عند الواحدة وثمانية عشرة دقيقة بعد منتصف الليل تحرك ظل من طرف الممر. كبر صاحب المخبز الصورة بإصبعين، فتكسرت الحواف إلى مربعات رمادية.

قال المحقق:

— شغله بالسرعة العادية.

اقترَب الشخص من الباب. كان يرتدي سترة داكنة وقبعة، ويمسك شيئاً صغيراً في يده. لم يحتج إلى دفع الباب أو تجربته. أدخل المفتاح، فتح، ثم اختفى في الداخل.

قال نبيل:

— أوقف هنا.

توقفت الصورة على كتف مائل ونصف وجه مخفي.

قال يوسف:

— أكل.

مرّت ست دقائق من التسجيل الفعلي. خرج الشخص نفسه وهو يثبت تحت سترته جسماً مستطيلاً. عند وصوله إلى ضوء الخبز التفت إلى الخلف. لم تلتقط الكاميرا ملامحه مباشرة، لكن وجهه ظهر على الزجاج للحظة؛ انعكاس شاحب بين إعلانات الخبز وصور الكعك.

شعرت هند ببرودة في ذراعها قبل أن تقول:

— سامي.

لم ينظر أبوها إليها. كان يتابع الشاشة، ويده ثابتة على ظهر الكرسي.

خرج سامي من طرف الصورة عند الواحدة وخمس وعشرين دقيقة. قفز التسجيل إلى لحظات الحركة التالية. مر قط، ثم عامل توصيل على دراجة، ثم لم يتحرك شيء. عند الثانية ودقيقتين ظهر وميض ضعيف خلف نافذة الورشة، خفت، وعاد بعد دقائق أقوى.

قال نبيل:

— دخل وحده، وخرج والملف معه، وبعده اشتعل المكان. ماذا ننتظر؟

أجاب المحقق:

— ننتظر التقرير.

— لو لم يكن هذا دليلاً، فما الدليل؟

أشار الرجل إلى التوقيت.

— دليل على دخوله وخروجه. وبين خروجه وأول علامة ظاهرة للحريق سبع وثلاثون دقيقة. قد يكون فعل شيئاً يظهر أثره لاحقاً، وقد لا يكون. لهذا ننتظر.

طلب نسخة أصلية من التسجيل، وحذر صاحب الخبز من إرسالها إلى أحد. أوماً الرجل، وأخرج وحدة التخزين من الجهاز أمامه. لكن هاتف هند اهتز قبل أن يغادروا الغرفة.

فتحتة. كان مقطع أقصر قد وصل إلى مجموعة الحي: سبع ثوان تبدأ بدخول سامي وتنتهي عند انعكاس وجهه. لا خروج، ولا توقيت لاحق، ولا فراغ السبع والثلاثين دقيقة. فوقه كتب أحدهم: «حارق ورشة يوسف ظهر بالكاميرا».

قالت هند:

— انتشر.

أخرج نبيل هاتفه، وراح يقرأ. ظهرت الرسائل أسرع من أن يلحق بها أحد.

«هذا العامل الذي عنده؟»

«نفسه الذي سرق أدوات من قبل.»

«يوسف ستر عليه، وهذه النتيجة.»

«سمعت أنه هدده حين عرف ببيع العقار.»

لم تكن الجملة الأخيرة صحيحة، لكنها أعيد إرسالها ثلاث مرات حتى بدت كأنها جاءت من ثلاثة شهود. حاولت هند أن تعرف من بدأ قصة الأدوات. كتب صاحب محل في السوق أنه رأى سامي قبل أشهر يعرض ريش حفر عليها علامة يوسف الحمراء. أضاف آخر أن يوسف استعادها وأبقى الشاب في العمل. بعد دقائق صار عدد الأدوات صندوقين، ثم صار معها مبلغ من درج الورشة.

قال يوسف لصاحب المحبز:

— أغلق المجموعة الآن إن استطعت.

قال الرجل مرتبكاً:

— من حساب ولدي. قلت له ألا يرسله، لكنه لم يقرأ رسالتي.

خرج يوسف إلى الشارع. تبعته هند، وفي يدها الهاتف الذي لم يتوقف عن الاهتزاز. كان عدة رجال قد تجمعوا عند الشريط؛ بعضهم جاء يسأل عن الحريق، وبعضهم جاء بعدما رأى المقطع. رفع شاب الشاشة في وجه يوسف.

— هذا سامي أم لا؟

قال يوسف:

— سامي.

— معه الملف؟

— يبدو أنه يحمله.

— إذن انتهى الأمر.

— لم ينتهِ.

قال رجل آخر:

— يا أبا هند، لا تحاول أن تستره هذه المرة. أنت عفوت عنه يوم سرقك، فخرق رزقك ورزق الناس.

رفع يوسف يده، لا ليسكته، بل ليبعد الهاتف عن وجهه.

— دخوله ظاهر، وأخذ الملف ظاهر. الحريق ليس ظاهراً عليه.

— ومن غيره؟

— لا أعرف. والمحقق يحتاج إلى أكثر من هذا.

وصل نبيل خلفهما وقال:

— أخي لا يقول إن سامي بريء. لا تفهموا كلامه هكذا.

نظر إليه يوسف.

— نعم. لا أقول إنه بريء.

ساد صمت قصير، كأن الناس لم يتوقعوا الجملة.

أكل:

— وأقول أيضًا إني لا أعرف أنه أشعل النار. أعطيت المحقق اسمه ورقه وعنوانه، وقلت له عن المفتاح والملف. وما يثبت عليه يتحمله.

قال صاحب الهاتف:

— وقصة السرقة القديمة؟

— سرق أدوات، وردّها، وعمل حتى سدّد قيمتها. هذه هي القصة، لا الصندوقان ولا المال الذي أضفتموه الآن.

خفض الرجل هاتفه قليلًا، لكنه لم يغلق التصوير.

ابتعد يوسف عن الجمع، فلحقت به هند حتى وقفا عند مدخل البيت. كانت تريد أن تسأله منذ رأّت المفتاح في يد سامي، لا منذ رأّت وجهه على الزجاج.

— أعطيته نسخة بعد أن سرقك؟

— نعم.

— ولم تقل لنا؟

نظر إلى الشريط الأصفر الممتد أمام الورشة.

- لم أقل لكم عن السرقة أصلاً.
- أعرف. هذا هو السؤال.
- مرريده على جبينه، وبقي عليه خط رماد.
- ظننت أن الأمر بيني وبينه ما دام أعاد الأدوات.
- لكنه لم يبق بينكما. عمي شريك، والمفاتيح تخص العقار، ونحن نعيش فوقه.
- قال بعد لحظة:
- كان علي أن أخبركم قبل أن أعطيه المفتاح.
- هل أخطأت حين وثقت به؟
- أخطأت حين جعلت القرار لي وحدي. أما المفتاح، فلا أعرف بعد ماذا كان يعني.
- المقطع يعني شيئاً واضحاً.
- يعني أنه دخل، ويبدو أنه خرج بالملف.
- وأنت إلى الآن تختار الكلمات.
- لأنني لا أستطيع سحب الاتهام بعد أن أقوله.

أرادت أن تقول إن صمته هو الآخر لا يرجع، وإنما حين رأت رجال الصيانة ليلة أمس لم توقظه لأن المسافات الصغيرة بينهم صارت أسهل من طرق بابه. لكنها لم تقل. فتحت الصورة التي التقطتها للركبة، وحدقت في ضوء لوحها المشوش. كان انعكاس وجهها ظاهراً فوق الزجاج الأسود لهاثفها، في الموضع نفسه تقريباً الذي ظهر فيه وجه سامي.

رن هاتف يوسف برقم غير مسجل.

رد بسرعة:

— نعم؟

جاءه صوت متقطع. لم تسمع هند الكلمات الأولى، لكنها رأت ملامح أبيها تتغير، فاقتربت.

— سامي، أين أنت؟

رفع يوسف الصوت. كان خلف سامي ضجيج محركات وإعلان بعيد لا تتضح كلماته.

— عمي، اسمعني قبل أن تقفل. أنا أخذت الملف.

قال يوسف:

— أعرف. أين أنت؟

— لم أحرق الورشة. خرجت قبل النار. الرجل قال لي أصور الأوراق فقط، ثم اتصل وأنا في الداخل وقال آخذ الملف كله. كان ينتظرنى.

— أي رجل؟

انقطع الصوت لحظة، ثم عاد أضعف.

— أنا عند محطة الشمال. الملف معي. لا تخبر الأستاذ رائد.

انتهت المكالمة.

ثبت يوسف عينيه على الشاشة، ثم اتصل بالمحقق أمام هند. كرر ما قاله سامي، بما فيه اسم المحطة والجملّة الأخيرة:

— قال: لا تخبر الأستاذ رائد.



الفصل الثامن

حق ليس لك

كان أبو طارق جالساً حين عاد إليه يوسف في المساء. أزيل قناع الأكسجين الكبير، وبقي أنبوب رفيع تحت أنفه. على الطاولة أمامه كيس شفاف فيه خاتمه وساعته ومفاتيح محله؛ أشياء خرجت معه من الدخان وظلت تؤدي وظائفها كأن شيئاً لم يقع.

أشار إلى الكرسي.

— أغلق الباب.

أغلقه يوسف وجلس. كان ابن أبي طارق قد خرج ليحضر الدواء، فبقيت الغرفة هادئة إلا من صوت الجهاز المعلق فوق السرير.

قال أبو طارق:

— الذي في المقطع سامي؟

— نعم.

— أخذ الملف؟

— قال إنه أخذه. عثروا عليه في محطة الشمال، والملف معه.

— والنار؟

— ينكرها. والتقرير لم يخرج.

مرر أبو طارق إبهامه على طرف الكيس.

— كان في محلي خمس عشرة ساعة للناس. اثنتان منها لا أستطيع أن
أشتري مثلهما لو بعت المحل.

— نسجلها واحدة واحدة. وما نجا نعرفه بعد أن يسمحوا بالدخول.

— ومن يدفع؟

— المتسبب حين يثبت. وإن كان سامي أخذ الملف فقط، فعليه تبعة
سرقة. وإن ثبت غير ذلك...

توقف يوسف. لم يرد أن يكل حكماً قبل أن يعرف.

قال أبو طارق:

— سمعت من يقول إنك ستعفو عنه.

— لم أقل ذلك. قلت إن سرقة الملف لا تثبت أنه أشعل النار.

— وورشتك؟

— ما يخصني أنا لا أريد أن أزيد به عليه.

رفع أبو طارق يده، فتوقف يوسف.

— ورشتك حتك. أما صدري فليس حتك. والساعات ليست حتك ولا حقي؛ أصحابها أودعوها عندي. لا تقل للناس: نغفو، كأننا شيء واحد خلفك.

انخفض صوت الرجل عند آخر العبارة، وسعل مرتين. ناوله يوسف الماء وانتظر حتى استقر نفسه.

نظر يوسف إلى يديه. بقي السواد تحت ظفرين مهما غسلهما في المستشفى.

— ماذا تريد أن نفعل؟

— أريد أن أعرف من أخرج المفتاح، ومن فتح الكهرباء، ومن ترك الممر حتى امتلاً بالدخان. وأريد علاجي وما ضاع من أمانات الناس. أما سامي، فلا أريد أحداً يضربه باسمي.

— لن يذهب إليه أحد.

— لا تعد بما لا تملك.

كانت الثانية أصعب من الأولى. أوماً يوسف.

— سأقول: لا يذهب إليه أحد من طرفي. ومن حاول الاعتداء عليه
أبلغنا عنه.

استند أبو طارق إلى وسادته.

— الآن فهمت كلامك.

دخل ابنه يحمل كيس الدواء. نهض يوسف ليترك له المكان، لكن أبا
طارق أشار إلى الدرج.

— خذ الدفتر الصغير. كتبت فيه الساعات وأسماء أصحابها. لا تفتح
الكيس البني إذا وجدته؛ فيه ساعة امرأة لا تريد اسمها على وصل المحل.
اتصل بها وحدها.

أخذ يوسف الدفتر. كان الغلاف مشققاً، والصفحات مرتبة بخط
صغير. في الصفحة الأخيرة حساب إصلاح قفل صندوق العرض الذي وعد
يوسف به قبل الحريق.

— لم أصلحه، قال.

قال أبو طارق:

— بقي لي عندك عمل إذن.

ابتسم يوسف للمرة الأولى منذ اتصل به رائد، ثم وضع الدفتر في جيبه.



في صالة الانتظار وجد أربعة من سكان المبنى ينتظرونه. حملت أم سلمان ورقة أرسلها رجل قال إنه يمثل شركة الروافد؛ عرض فيها سكناً فندقياً لثلاث ليال، وتحت العرض إقرار طويل بأن المساعدة لا تعني مسؤولية الشركة عن الحريق.

قالت:

— نوقع أم لا؟ الأطفال عند أختي، وبيتها لا يسعنا.
قرأ يوسف الورقة مرتين. لم يكن الإقرار تنازلاً صريحاً، لكنه لم يعرف أثره القانوني.

— لا أعرف حكمه. نصور الورقة ونرسلها إلى المحامية سلوى الليلة. أما السكن فلا ينبغي أن ينتظر. سأتصل بهم وأطلب أن يفصلوا الحجز عن الإقرار.

قال صاحب البقالة:

— وإذا رفضوا؟

— نبحث عن مكان آخر، وكل واحد يحتفظ بإيصالاته. لا تعدوني
ممثلكم في شيء لم تفوضوني به.

نظروا إليه باستغراب. كانوا قد اعتادوا أن يأخذ أوراقهم ويقول:
أراجعها. أخرج دفترًا من جيبه الآخر، ورسم ثلاثة أعمدة.

— نكتب الآن اسم كل أسرة، وعدد من معها، وأين تقيم الليلة. ثم
نكتب أصحاب المحال وأمانات زبائنهم. إصابة أبي طارق ملف مستقل،
والسكن ملف مستقل، وخسارة الملك ملف آخر.

قالت أم سلمان:

— أليست كلها من النار؟

— من النار، لكنها ليست حقًا واحدًا أتكلم فيه وحدي.

جلسوا حول طاولة صغيرة قرب آلة الماء. ذكر كل واحد ما يحتاج إليه،
وصحح الآخر عددًا أو اسمًا. حين وصلوا إلى محل الساعات، أخرج يوسف
دفتر أبي طارق ولم يفتحه. كتب فقط: «أمانات زبائن — القائمة عند
صاحب المحل».

اتصل به المحقق قبل أن ينتهوا. قال إنهم وجدوا سامي في المكان الذي
ذكره، وإن الملف استُعيد، وإنهم سيأخذون إفادته بحضور من يلزم. طلب
من يوسف ألا يأتي إلى المركز حتى يتصلوا به.
سأله يوسف:

— هل هو بخير؟

— لم يصبه أحد، إن كان هذا سؤالك.

— وهو سؤال.

أغلق الهاتف، فعرف الواقفون من وجهه أن الخبر عن سامي.

قبل أن يسأله، اتصل بالرقم المطبوع أسفل عرض السكن. أجابه موظف قال إن الإقرار جزء من نموذج موحد ولا يملك فصله. طلب يوسف تحويله إلى من يملك. انتظروا جميعاً وصوت الموسيقى يخرج من الهاتف فوق الطاولة.

جاءه صوت رائد بعد دقيقة.

— تريد الغرف ولا تريد توقيع الاستلام؟

— أريد أن يوقع كل ساكن على استلام الغرفة فقط. أما الكلام عن المسؤولية فيراجعه من يمثله.

— نحن ندفع من غير إقرار بالمسؤولية، وهذا طبيعي.

— اكتب هذه الجملة وحدها إذن، ولا تضع تحتها تنازلاً لا نفهمه.

سكت رائد، ثم قال إن الحجز سيرسل بأسماء الأسر، وإن الورقة الأخرى يمكن أن تنتظر حتى الصباح. أغلق يوسف ووضع الهاتف في الوسط.

— وصلت الغرف. لا يوقع أحد الليلة إلا على اسمه وعدد الليالي.

قال صاحب البقالة:

— وجدوه؟

— نعم، ومعه الملف.

— إذن نكتب اسمه أمام الخسائر كلها.

نظر يوسف إلى الأعمدة الثلاثة، ثم أغلق الدفتر.

— نكتب اسمه أمام ما ثبت عليه. والباقي يبقى فارغاً حتى نعرف.

لم يعجب الجواب الرجل، لكنه لم يجادله. وحين نهضوا، أعاد يوسف فتح الصفحة الأولى، وترك خانة سبب الحريق فارغة.



الفصل التاسع

السعر العاجل

وصل نبيل إلى مكتب الروافد قبل الموعد بعشرين دقيقة. جلس في الردهة تحت شاشة تعرض المشروع الجديد، وشاهد المباني ترتفع في رسم متحرك فوق حي خالٍ من السكان. كانت الشوارع واسعة، والسيارات قليلة، ولا باب في الطابق الأرضي إلا ويفتح على متجر مضاء.

أخرج هاتفه. وجد رسالة من حسان، أقدم عماله:

نحتاج جواباً اليوم. اثنان من الرجال سيتركان السكن غداً لأن الإيجار لم يُدفع.

كتب: «بعد الظهر»، ثم محاهها. كتب: «أعمل على المبلغ»، وأرسلها. كان قد استعمل الجملة نفسها قبل أسبوع.

خرج رائد من المصعد، صافحه، وأشار إلى غرفة الاجتماع.

— يوسف لم يصل؟

— سيأتي.

— كنت أظن أن ما حدث سيجعله أسرع.

لم يعجبه أن يتكلم رائد عن الحريق كأنه تنبيه وصل في موعده، لكنه قال:

— أخي لا يوقع وهو مستعجل.

— وهذه خصلة مريحة حين يكون الوقت ملكه وحده.

دخل يوسف بعد دقائق، يحمل ملفاً ورقياً سميكاً لا يشبه ملفات الشركة اللامعة. ضم إليه الملاحظات التي أرسلتها سلوى في الليل عن فصل مطالبات السكان عن البيع. اعتذر عن التأخر دقيقة واحدة، ثم جلس إلى جوار نبيل.

لم يقدم رائد الكتيب هذه المرة. وضع ورقتين أمامهما.

— الشركة مستعدة لرفع العرض ثمانية في المئة، وتحمل كلفة إزالة الجزء المتضرر. ندفع عربوناً كبيراً عند توقيع الاتفاق، ونمنح الشاغلين إقامة مؤقتة ثلاثة أيام حتى تكتمل ترتيبات الانتقال.

نظر نبيل إلى الرقم. كان الفرق وحده يكفي لرواتب الرجال وفاتورة الحديد. أحس بظهره يستقيم في المقعد.

قال يوسف:

— لماذا ارتفع السعر بعد أن احترق جزء من العقار؟

— لأننا نريد إغلاق الملف سريعاً. التأخير في مشروع بهذا الحجم أغلى من الضرر.

— وهل تغير شرط الثلاثين يوماً؟

— لا.

فتح يوسف ملفه. كانت الصفحة الأولى هي القائمة التي كتبها في المستشفى.

— هذه أربع أسر وثلاثة أصحاب محال. بعضهم خرج بلا دواء ولا ثياب، وبعضهم عنده بضائع وأمانات للناس. ثلاثة أيام لا تكفي.

قال رائد:

— لهذا يوجد تعويض. لا يمكن أن يبقى المشروع معلقاً حتى يرضى كل شخص عن بيته الجديد.

— ولا يمكن أن نبيعكم عقاراً خالياً قبل أن نعرف كيف سيخلو.

تدخل نبيل:

— نستطيع أن نضع من ثمن البيع مبلغاً للانتقال. لا نطلب من الشركة كل شيء.

التفت يوسف إليه.

— صحيح.

لم يتوقع نبيل الموافقة بهذه السرعة.

أكل يوسف:

— نعرف قيمة العقار أولاً من مئمن مستقل، ثم نعرف التزاماتنا لكل عقد. ما كان علينا نؤديه من المئمن، وما عرضته الشركة زيادة يكتب منفصلاً. أما علاج أي طارق وأمانات محله والتحقيق في الحريق، فلا تدخل في مقابل البيع.

ضم رائد يديه فوق الطاولة.

— نتكلم كأننا طرف في الحريق.

— أتكلم كأن الحريق لم يكتمل تقريره. لا أتهمكم، ولا أوقع ورقة تخطئ شراء العقار بإغلاق المطالبات.

— فريقنا أنهى معاينته وخرج. الحريق ظهر بعد ذلك بزمان.

قال نبيل:

— كم زماناً؟

نظر إليه رائد.

— هذا سؤال التحقيق، لا سؤال.

أخرج يوسف صورة تصرّيح الدخول، ووضعها إلى جوار العرض.

— الإضافة تقول: لا نزع ولا تبديل ولا تشغيل. هند رأّت صندوق الكهرباء مفتوحاً وانطفاء في الممر.

— ورأت فنيين يفحصون مبنى قديماً. إذا كان عندك اتهام، قدمه للجهة المختصة.

— قدمنا ما رأيناه. ولهذا أفصل التحقيق عن البيع.

دفع رائد الورقتين نحوهما.

— العرض حتى الثانية ظهراً. بعد ذلك لا أضمن الرقم ولا الإقامة ولا بقاءنا مهتمين بالقطعة. لست في مقام تهديد؛ هذه تكلفة قرار تجاري.

قال يوسف:

— نرسل إليك جواباً بعد التقييم.

— لن تحصل على تقييم مستقل في ثلاث ساعات.

— إذن لن تحصل على توقيعي في ثلاث ساعات.

بقي صوته على المستوى نفسه. شعر نبيل بالغضب منه ومن رائد معاً؛ أحدهما يضع موعداً لا يرحم، والآخر يملك أن يقول لا لأن العمال لا يرسلون رسائلهم إلى هاتفه.

نهض رائد.

— يمكنك يا أستاذ نبيل بيع حصتك وحدها إذا شئت. عرضنا لها أقل بطبيعة الحال، لكنه متاح.

لم ينظر نبيل إلى أخيه.

قال يوسف:

— هذا حقه، وهو يعرف أن بيع الحصة لا يخلي العقار ولا يسقط حقوق الشاغلين.

— قلت لك لا تتكلم عني وأنا حاضر، قال نبيل.

— أتكلم عن حصتي إذن.

أغلق يوسف ملفه، ونظر إلى رائد.

— سيرد عليك نبيل عن حصته، وأرد عليك عن حصتي. وإذا اتفقنا على بيع الكل، نجلس بعقد لا يحمل الحريق فوق ثمن الأرض.

نرجا من المكتب من غير مصافحة. في المصعد ظل نبيل يرى الرقم الجديد خلف جفنيه.

قال:

— هل تريد البيع أم لا؟

— إذا كان المبنى غير صالح، وثبتت القيمة، وأدينا ما علينا، نعم.

التفت إليه نبيل.

— أمضيت أسبوعين تجعلني أظن أنك ستدفن نفسك تحت الورشة.

— أمضيت أسبوعين تطلب مني توقيع شرط لا نعرف كيف ننفذه.

— والعرض ينتهي بعد ساعة ونصف.

— إذا انتهى العرض قبل أن نراجع العقد، فلينته.

فتح باب المصعد. في الردهة كان رجل مسن ينتظر ويده ملف عقار آخر. خرج الأخوان إلى الشارع.

قال يوسف:

— هند وجدت مئماً مرخصاً يستطيع البدء اليوم. ندفع أجره مناصفة.

أخرج من ملفه رسالة الموعد. كان المئمن قد طلب صور العقار والعقود وتقرير الضرر الأولي، وحدد أجره قبل أن يعرف عرض الروافد. قرأ نبيل الاسم والسعر، ثم أعاد الورقة.

— ادفع أنت الآن، وأحسبها لك عند البيع.

— أدفع نصفها، وتدفع نصفها حين تستطيع. لا أريد تقريراً يخصني وحدي ثم أطلب منك تصديقه.

لم يقل نبيل نعم، لكنه صور الورقة بهاتفه.

وحفظ موعد المثلث في تقويمه.

— وديوني تنتظر تقريراً جديداً.

— أعرف أنها لا تنتظر. لكن فرق الثمانية في المئة يقول إن عندهم مساحة أكبر مما أخبرونا.

رن هاتف نبيل. ظهرت رسالة خاصة من رائد:

إذا وقّعت على بيع حصتك قبل الثانية، أحول العربون اليوم. لا تجعل شروط يوسف تسقط حق عمالك.

قرأها مرتين. كان يوسف قد تقدم نحو سيارته ولم ير الشاشة. رفع نبيل إصبعه ليجيبه، ثم توقف. وضع الهاتف في جيبه من غير أن يحذف الرسالة. لم يكن قد قبل، لكنه للمرة الأولى أخفى عن أخيه عرضاً يستطيع أن ينقذه وحده.



الفصل العاشر

البيت المغلق

أعادت هند تشغيل المقطع للمرة الخامسة. ظهر أبوها عند الشريط الأصفر، وأمامه هاتف مرفوع، ثم جاء صوته واضحاً:

— دخوله ظاهر، وأخذ الملف ظاهر. الحريق ليس ظاهراً عليه.

قصت الثواني التي سبقت العبارة، وأبقت ما بعدها: الرجل يسأله «ومن غيره؟»، وأبوها يجيب أنه لا يعرف. كتبت فوق المقطع: «حين يرفض رجل أن يجعل الغضب دليلاً». لم تذكر أن الرجل أبيها، مع أن الحساب يحمل اسمها وصورتها ويعرف نصف الحي صلتها.

ضغطت النشر.

في الدقائق الأولى جاءت تعليقات من أصدقائها: «كلام عاقل»، و«نحتاج هذه الأصوات». ثم أعاد شخص نشر المقطع إلى جوار صورة سامي عند باب الورشة، وكتب: «صاحب العقار يدافع عن عامله رغم ظهوره في موقع الحريق». حذف ناشر آخر جملة السرقة، وأبقى «الحريق ليس ظاهراً عليه»، كأن يوسف يتحدث بعد صدور تقرير لا قبله.

جلست هند على طرف الأريكة ترد على كل تعليق. كتبت أن التحقيق لم ينته، وأن عامل الصيانة دخل قبل الحريق، وأن شركة الروافد كانت تضغط لبيع العقار. محاها التطبيق مرتين لأن الرد طال، فقسمته إلى ثلاثة. وفي الرد الثالث ذكرت أن أبا طارق خرج من المحل بقناع الأكسجين، وأن أباه كان أول من دل رجال الإطفاء إلى موضعه. لم تسأل طارق ولا أباه إن كانا يريدان أن تصبح إصابته جزءاً من دفاعها.

قالت مريم من المائدة:

— ضعي الهاتف وتعالى.

— دقيقة.

— هذه الدقيقة ورثتها عن أبيك.

رفعت هند رأسها. كان يوسف قد دخل من الباب يحمل صندوقاً معدنياً صغيراً ودقترين. وضعهما على المائدة، وجلس من غير أن يخلع ساعته. بدا كأنه جاء لاجتماع آخر، لا إلى بيته.

قالت مريم:

— افتح الصندوق.

نظر إليها، ثم أخرج المفتاح من حلقتة. داخل الصندوق إيصالات،
ودفتر حساب قديم، ومغلفات كتب على كل منها اسم محل أو شقة.
سألت:

— كم دفعت من دخل الورشة بدل إيجارات متأخرة وصيانة لم تخص
نصيبك وحده؟

— حسبتها اليوم. ثمانية وعشرون ألفاً وأربعمئة خلال عامين.
توقفت أصابع هند فوق الشاشة.
قالت مريم:

— وأنا حين سألتك لماذا أجلنا إصلاح تسرب المطبخ، قلت إن دخل
الورشة ضعيف.

— كان ضعيفاً.

— لأن جزءاً منه كان يذهب هنا، ولم تقل.

فتح يوسف أحد الدفترين ودفعه إليها.

— المال من نصيبي بعد المصروف، ولم آخذ من حساب البيت.

— لا أتهمك بأنك سرقت البيت. أقول إنني ربت حاجاتنا على رقم لم
يكن حقيقياً، ووعدت هند بالمساعدة في انتقالها وأنت لا تعرف هل تستطيع.

قالت هند:

— وعمّي؟ هل كان يعرف؟

— لا يعرف كل المبالغ.

ضحكت من غير مرح.

— إذن لا أحد يعرف إلا أنت.

— لهذا أحضرت الدفاتر.

— بعد أن احترق الدكان.

لم يجب. فتح هاتفه ووضع أمامهما رسالة المثلث ونسخة قائمة أصحاب الحقوق.

قالت مريم:

— لا تجعل الأوراق تجيب بدلاً منك. لماذا لم تخبرني عن سامي؟

— ظننت أن السرقة انتهت حين رد الأدوات.

— وأعطيته مفتاحاً يفتح غرفة العقود.

— نعم.

— لماذا؟

فكر قبل أن يقول:

— لأنه أكل ما عليه، وعمل نحسة أشهر من غير أن يأخذ شيئاً. رأيت
أن بقاءه بلا ثقة بعد ذلك عقوبة لم تنفق عليها.

قالت هند:

— لكن المفتاح ليس لك وحدك.

— لم يكن لي أن أقرر وحدي.

قالت مريم:

— كل من في الحي يستطيع أن يصل إليك. نحن نعرف قرارك بعد أن
يصير إيصالاً أو مفتاحاً في يد أحد.

رفع يوسف عينيه إليها.

— ماذا تريدان مني الآن؟

— لا تسألنا عن كل مسمار، قالت. أخبرنا بالقرار الذي قد يغير بيتنا
قبل أن نتخذه. وإذا وعدت أحداً بمال منتظم، اكتبه في حساب نراه.

قالت هند:

— وإذا وثقت بشخص في شيء يخلصنا، لا تجعلنا نكتشفه من كاميرا

مخبز.

أولاً. أخرج مفتاح الصندوق ووضعه أمام مريم.

— تبقى الدفاتر هنا، ونراجعها كل خميس. وما يخص العقار أخبر نبيلًا به كتابة.

قالت مريم:

— احتفظ بنسختك. أريد أن نراجع الدفاتر معًا.

أعاد يوسف المفتاح إلى حلقتة، وترك الدفاتر على المائدة.

اهتز هاتف هند. كان عدد المشاهدات قد تجاوز ما اعتادت أن تصل إليه في شهر. وصلتها رسالة من حساب شركة الروافد، فيها بيان قصير للنشر:

انتهت المعاينة الفنية المصرح بها قبل الحادث، وغادر الفريق الموقع.

وتؤكد الشركة تعاونها الكامل مع الجهات المختصة، وتأسف لتداول

اتهامات غير موثقة تمس موظفيها وشركاءها.

وتحت البيان سؤال: «هل لديك ما يثبت ما كتبتِ عن ضغط

الشركة؟»

قرأ يوسف المقطع الذي نشرته من هاتفها. لم يطلب حذفه.

— هل يعرف من يشاهده متى قلت هذا؟

— كتبت أنه بعد الحريق.

— بعده بساعة أم بعد التقرير؟

أعادت قراءة تعليقها. لم تذكر.

— هم اجتزؤوه، لا أنا.

— وأنت أعطيتهم ما يجتزئون.

قالت بحدة:

— لو تركنا الكلام لهم سيجعلون سامي وحده في الصورة، ويجعلونك الرجل الذي يخفي مجرمًا.

— أصلحي ما أخطأت فيه أنت. أما هم، فنرد عليهم بما يثبت حين يثبت.

فتحت هند إعدادات المنشور. كتبت توضيحاً بأن المقطع صور قبل اكتمال تقرير الحريق، وأن سامي أقر بسرقة الملف، وأنها لا تملك دليلاً يحدد مسبب النار. نشرته في تعليق مثبت، والتقطت له صورة، ثم حذفت المنشور الأصلي.

لم يتوقف الانتشار. بقيت النسخ في الحسابات الأخرى، وبعضها بلا صوت كامل.

وصلتها رسالة جديدة، هذه المرة من مسؤولية التوظيف في المؤسسة التي أرسلت عرض العمل:

ظهر لنا نقاش عام مرتبط بحسابك. قبل اعتماد العقد النهائي، نحتاج إلى توضيح طبيعة المحتوى وصلتك بالأطراف المذكورة.

وضعت الهاتف مقلوباً. أمامها كان أبوها يشرح لمريم أول بند في الدفتر، ومريم توقفه كلها تجاوز رقماً بلا تاريخ.

فتحت الرسالة مرة ثانية، وكتبت جواباً لا يدافع عن المقطع ولا يخفي صلتها بأصحابه. قالت إنها ابنة مالك العقار، وإنها نشرت من حسابها الشخصي قبل اكتمال الوقائع، ثم صححت ما نشرته. أرفقت رابط التصحيح، وتركت للمؤسسة أن تقرر بعد أن تقرأ النسختين.

سحبت هند كرسياً إلى المائدة، وطلبت من أبيها أن يعيد البند الأول من بدايته.



الفصل الحادي عشر

اعتراف ناقص

بعد يومين من الحريق، اتصل المحقق بيوسف وطلب حضوره للتعرف رسمياً إلى محتويات الملف وحضور مواجهة محدودة تتعلق بالمفتاح والأوراق. قال إن محامي سامي أبلغ، وإن بقية أقواله ستبقى في محضر التحقيق. اتصل يوسف بنيل، ثم مرّ عليه واصطحبه. ظل أخوه يقلب هاتفه بين يديه، يفتح مقطع الكاميرا ويغلقه من غير تشغيل.

قال نيل:

— إذا قال إنك أرسلته، ماذا ستقول؟

— ما حدث.

— أقصد أنه قد يتعلق بكلام منك. أنت أعطيته المفتاح.

نظر يوسف إلى الطريق.

— أعطيته مفتاحاً للعمل، لا لأخذ الملف.

— جيد. قلها كما هي.

فهم يوسف خوف أخيه. كل كلمة صارت قادرة على رفع ثمن العقار أو إسقاطه، وعلى نقل الشبهة من يد إلى أخرى.

في مقر التحقيق، جلسا في ممر ضيق تفوح فيه رائحة ورق وآلة قهوة. مر شرطي يحمل حقيبة سامي داخل كيس شفاف. عرف يوسف طرف الملف الأزرق من فتحة السحاب، ورأى إلى جواره بطاقة بيضاء وهاتفًا صغيرًا.

بعد دقائق فتح المحقق الباب، ووضع الملف على طاولة أمامهما. كان مبتلًا عند الحافة، لا من ماء الإطفاء، بل من قارورة انسكبت داخل الحقيبة. قلب يوسف الأوراق واحدة واحدة: عقود الشقق الأربع، وعقود الحال، وإيصالات الصيانة، وصور هويات قديمة، ومخطط العقار الذي رسمه أبوه بقلم رصاص. لم يظهر نقص في الأصول، لكن ترتيبها تغير. ثم عرض المحقق صوراً استخرجت من هاتف سامي، فتعرف يوسف إلى صفحات من العقود نفسها.

أشار المحقق إلى البطاقة داخل كيس صغير.

— تعرفان هذا الاسم؟

قرأ يوسف: «زياد منصور — تطوير الأصول — شركة الروافد».

— رأيت الشعار حين كان يتكلم مع سامي، ولم أر الاسم.

قال نبيل:

— يعمل مع رائد. حضر معه مرة إلى الموقع، لكنه لم يدخل الاجتماع.

سجل المحقق كلامه، ثم طلب منهما الانتظار. حين عاد، كان سامي خلفه، وإلى جواره محاميه.

لم يكن مقيد اليدين. جلس في الطرف الآخر من الطاولة، وجلس المحامي إلى جواره. كان على سترته غبار رمادي. رفع عينيه إلى يوسف ثم خفضهما. لم ينظر إلى نبيل.

قال المحقق:

— سنثبت أمامكما فقط ما يتعلق بالملف والمفتاح. بقية الإفادة لها إجراء آخر. يا سامي، قل من البداية.

بلل سامي شفتيه.

— قابلي زياد عند الورشة. قال إنهم يحتاجون صور العقود، وإن الأستاذ نبيل شريك، وإن العم يوسف يعطل البيع.

قال نبيل:

— متى؟

رفع المحقق يده.

— دعوه يكمل.

— عرض عليّ ثلاثة آلاف. ألف قبل، وألفين بعد الصور. لم آخذ
الألف يومها. أخذت بطاقته فقط.

سأله المحقق:

— ثم؟

— اتصلت به ليلة الحريق.

رفع يوسف رأسه. بقي سامي ينظر إلى حافة الطاولة.

— لماذا؟

— احتجت المال.

— لأي شيء؟

— هذا في الإفادة الأخرى.

لم يضغط المحقق أمامهما، وقال له أن يتابع.

— قال: ادخل بعد أن يهدأ المخبز، وصور الملف الأزرق. حين وصلت

رأيت سيارته عند آخر الشارع. دخلت بالمفتاح. كانت الكهرباء مطفأة في

الخلف، فاستعملت ضوء الهاتف. فتحت الخزانة وأخرجت الملف. اتصل بي وأنا في الداخل وقال: لا تصور، خذه كله وانزل. كان ينتظر عند آخر الممر.

— وسلمته له؟

— لا. حين خرجت مرت سيارة دورية من الشارع، فأشار إليّ أن أمضي. أرسل بعدها موقعاً قرب المحطة وقال إننا نلتقي هناك. انتظرت، ثم رأيت سيارات الإطفاء تذهب إلى الحي. اتصلت به، فأغلق هاتفه. وبعدها اختفت المحادثة من التطبيق.

— قد تكون الرسائل مؤقتة، أو حُذفت من الطرفين، أو حذفتها أنت. سنفحص الجهاز.

— كانت تختفي. بقي رقه في سجل الاتصال.

أخرج المحقق صوراً مطبوعة لسجل الهاتف. لم يرها يوسف بوضوح، لكنه رأى مكالمات قصيرة متتابة حول وقت دخول سامي وخروجه.

قال نبيل:

— والنار؟

هز سامي رأسه بسرعة.

— لم أشعل شيئاً. لم ألمس الكهرباء. دخلت المكتب وأخذت الملف
ونخرجت.

— هربت يوماً كاملاً لأنك أخذت أوراقاً؟

— رأيت المقطع ينتشر، والناس قالوا إنني أحرقتها. لو رجعت لأخذوني
قبل أن أتكلم.

قال يوسف للمرة الأولى:

— فاتصلت بي.

نظر إليه سامي.

— لم أعرف بمن أتصل.

— كان يمكنك أن تأتي بالملف إلى الجهة التي تحقق.

— خفت.

لم يجد يوسف في وجهه ما يثبت الجملة أو ينفيها.

قال سامي:

— يا عم يوسف، قل لهم إنك أعطيتني المفتاح.

— قلت لهم.

— وإني كنت أفتح الورشة وحدي.

— قلت هذا أيضًا.

— إذن لم أكرس الباب ولم...

قاطعته يوسف:

— أعطيتك المفتاح للعمل. لم آذن لك أن تدخل ليلاً ولا أن تأخذ

الملف. لن أغير هذه الجملة.

تحرك سامي في مقعده، ونظر إلى نبيل كأنه ينتظر منه باباً آخر، لكن

نبيل أبعد وجهه.

قال المحقق:

— هل وعدك يوسف أو أخوه بالتنازل عن حقهما إذا أعدت

الأوراق؟

قال سامي:

— لا.

— هل طلب منك أحد أن تخفي اسم زياد أو رائد؟

— زياد قال من البداية إن الأستاذ رائد لا يريد أن يعرف التفاصيل.

وبعد الحريق خفت أن أخبر رائداً فيعرف مكاني.

سأل يوسف:

— هل كلّمك رائد بنفسه؟

— لا.

كان اسم رائد قد جاء على لسان موظف يحمل بطاقة شركته، لا في مكالمة ولا رسالة منه.

جمع المحقق الأوراق، وقال إن الملف سيبقى لديهم إلى أن ينتهوا من تصويره وإثبات محتواه. ثم طلب من يوسف ونبيل توقيع محضر التعرف إلى ممتلكاتهما.

أمسك نبيل القلم أولاً. أما يوسف فقرأ السطور حتى آخرها، وعدّل وصفاً كتب فيه «الملف المسروق من ملك يوسف».

— الملف من العقار، والعقار بيني وبين أخي، وفيه أصول تخص المستأجرين.

صحح المحقق العبارة، فوقع.

عند الباب، ناداه سامي:

— عمي.

توقف يوسف.

— هل ستركني هنا؟

لم تكن في السؤال كلمة عن أبي طارق أو الملف أو الخوف الذي تركه في بيوت الحي. ومع ذلك لم يستطع يوسف أن يراه مجرد وجهه على تسجيل.

— سأتصل بأهلك. ومحاميك معك ويعرف الإجراء. لكنني لن أقول إنك لم تسرق، ولن أعدك أن الأمر يمر بلا نتيجة.

— والنار؟

— إن كنت لم تفعلها، فلن ينفعك أن أكذب من أجلك في السرقة. قل كل ما تعرفه، واترك الدليل يأخذ طريقه.

خرج يوسف وأغلق الباب خلفه. بقي المحقق مع سامي والملف الأزرق على الطاولة.



الفصل الثاني عشر

ذنبان لا ذنب واحد

قبل أن يعود يوسف من مقر التحقيق، انتشرت في حي السور جملة لم يعرف أحد مصدرها: «حارق الورشة اعترف». لم تذكر الجملة أن سامي أقر بسرقة الملف وأنكر الحريق.

رأت هند الجملة في ثلاث مجموعات، بصور مختلفة للرجل نفسه. مرة كان وجهه مأخوذاً من انعكاس زجاج الخبز، ومرة من صورة قديمة في الورشة، ومرة من بطاقة تدريب نشرها قبل عام. وتحت كل صورة قصة كاملة كتبها من لم يكن في التحقيق.

فتحت هند لقطة طويلة حفظتها للمنشور قبل أن تحذفه في الليلة الماضية. ظهر فيها النص والتعليقات التي اهتمتها بتجميل صورة الأسرة واستعمال إصابة أبي طارق مادة إعلامية. أغلقتها حين سمعت أصواتاً عند الشارع.

من النافذة رأت سيارة تابعة للتحقيق تقف قرب الخبز. سمعت المحقق يقول لصاحب الخبز إنهم سيعيدون مع سامي مساره ليلة الحريق وموضع السيارة التي انتظرتة. طلب شرطي من الواقفين أن يبقوا خلف الحاجز المتحرك.

خرجت هند. كان أبوها عند أم سلمان يتحدث عن شقتين مفروشتين وجدوهما للأسر، وعيها نبيل يقف قرب بوابة العقار المغلقة. كان طارق، ابن أبي طارق، داخل الحاجز بإذن ليخرج دواء أبيه ودقتر المحل. ما إن ظهر سامي حتى ترك الصندوق وتحرك نحوه.

قال بصوت سمعه الممر كله:

— هذا هو؟

لم يجبه أحد. تقدم حتى صار على بعد خطوة من سامي.

— انظر إليّ.

رفع سامي رأسه. كانت شفته متشققة من الجفاف، وعينه تتحرك بين الوجوه ولا تستقران.

— أبي يتنفس من جهاز بسبيك.

قال أحد المحققين:

— ابتعد، من فضلك. نحن في إجراء.

— أي إجراء؟ صورته داخلية قبل النار. ماذا بقي؟

مد يده ودفع سامي في صدره. أمسك الشرطي بذراعه، لكن طارق أفلت وحاول أن يضرب مرة أخرى. كان يوسف أقرب إليه من الشرطي

الثاني؛ دخل بينهما، فوقعت قبضة طارق على كتفه وانزلت إلى جانب عنقه.

تراجع يوسف خطوة، ثم ثبت. لم يرفع يده.

— حق أبيك لا آخذه منك ولا أسقطه. لكنك لن تضربه.

— تحميه بعد الذي فعله؟

— أحميه من الضرب الآن. والحريق له من يحققه.

أحاط الشرطيان بطارق وأبعدها. رفع بعض الواقفين هواتفهم. رفعت هند هاتفها أيضاً، ثم جعلت العدسة إلى الأرض وأبقت التسجيل جارياً لتوثيق ما يجري.

قال رجل من آخر الجمع:

— يوسف لا يتعلم. ستر عليه أول مرة، والآن يقف درعاً له.

استدار يوسف إليه.

— لا أحد يستر على ما ثبت. سامي دخل الورشة وأخذ الملف، وهو أقر بذلك.

قالت أم سلمان:

— ومن يسرق الملف قبل الحريق، ماذا ننتظر منه؟

— ننتظر الدليل على الحريق.

— هذه فلسفة. نحن خرجنا من بيوتنا.

خفض يوسف صوته حين أجابها:

— وأعرف أن الانتظار ثقیل عليك. لكن سرقة الملف ذنب، والحريق ذنب آخر. لا تثبت الثانية بالأولى.

قال طارق من خلف الشرطي:

— وأبي؟

— إصابته حق لا يضيع، سواء كان الذي تسبب في النار سامي أو

غيره.

اقترب نبیل من أخيه وقال بحيث يسمعه القريبون:

— دع المحقق يتكلم. كل جملة منك تتحول في المقاطع إلى دفاع عنه.

— لم أدافع عن سرقة.

— الناس لا تسمع هذا الفرق.

— إذن لا نلغي الفرق حتى يسمعه.

نظر نبيل إلى الهواتف المرفوعة، ثم ابتعد. راقبته هند وهو يفتح رسالة ثم يغلقها، وبدأ لها أنه يحسب ما ستفعله صورة جديدة بعرض الشركة وبما ينتظره من مال.

طلب المحقق من الناس إخلاء الممر. تقدم سامي تحت الحراسة، وأشار إلى باب الورشة الخلفي.

— دخلت من هنا.

— كيف كانت الإضاءة؟

— مظفأة في الخلف. الخبز وحده كان مضيئاً.

— هل شممت دخاناً؟

تردد سامي.

— لم يكن دخاناً. كانت رائحة بلاستيك ساخن، مثل سلك يسخن، لكنها خفيفة.

قال طارق:

— بدأ يجهز قصته.

لم يلتفت المحقق إليه. سأل سامي عن موضع الرائحة، فأشار إلى الجدار الفاصل بين المكتب وغرفة العدادات. ثم سار به إلى آخر الممر، حيث قال إن سيارة زياد انتظرت.

— ما لونها؟

— سوداء.

— نوعها؟

— لا أعرف. كانت واقفة خلف مركبة صيانة بيضاء.

رفعت هند رأسها. عادت إليها الصورة التي التقطتها ليلاً، والملصق الأزرق على الباب. فتحت معرض الصور، لكن الشرطي طلب من الواقفين الابتعاد أكثر، فتراجعت وهي تبحث بين عشرات اللقطات.

وقف المحقق عند النقطة التي حددها سامي. من هناك لا ترى كاميرا المخبز آخر الشارع؛ يحجبها صندوق معدني وشجرة. صور المكان، ثم عاد إلى السيارة.

قبل أن يصعد سامي، ناداه طارق:

— إذا لم تكن حرقها، فأنت سرقتها على الأقل.

توقف سامي، ولم يجب.

قال يوسف:

— نعم. سرق الملف.

التفت إليه طارق، وقد أربكته موافقته.

فتح الشرطي باب السيارة، فدخل سامي. تحركت المركبة ببطء بين الواقفين. لم يتفرقوا بعد رحيلها؛ انقسموا إلى دائرتين، واحدة تقول إن النار بدأت يوم أعطى يوسف المفتاح، وأخرى تقول إن الشركة وجدت شاباً فقيراً لتعلق عليه الجريمة. لم يكن مع أي منهما تقرير الحريق.

وقف يوسف عند مدخل العقار، يفرك موضع الضربة في كتفه. اقتربت منه هند وفتحت صورة المركبة البيضاء. ظهر في أعلاها رمز صغير يدل على أن الهاتف حفظ معها لحظة من الحركة، لا إطاراً واحداً.

— هذه كانت هنا قبل الحريق بساعتين تقريباً، والصورة التي أرسلتها للمحقق مضمومة.

نظر يوسف إلى الشاشة، ثم إلى سيارة التحقيق التي أوشكت أن تنعطف.

— أخبريه أن الأصل عندك. لا تحاولي تحسينها.

كتبت هند رسالة قصيرة: «لدي الملف الأصلي وصور متتابعة من ليلة
المعاينة. هل تريدونها كما هي؟» ثم أبعدت إصبعها عن مجموعة الحلي وأرسلت
إلى رقم المحقق وحده.

لم يجبها في اللحظة نفسها. احتفظت بالهاتف في يدها، ولم ترسل شيئاً
آخر.



الفصل الثالث عشر

التوقيع

عرف نبيل أن الورقة انكشفت حين وضع المحقق أمامه صورة الحالة المصرفية. كان الوصف في أسفلها واضحاً: «عربون حجز حصة عقارية - حي السور». المبلغ مئة وثمانون ألفاً، والمرسل شركة تابعة للروافد.

جلس يوسف إلى يمينه. لم يتحرك، ولم يسأل. كان صمته أصعب على نبيل من السؤال.

قال المحقق:

— نحتاج أن نفهم طبيعة هذا المبلغ وصلته باتفاق البيع.

أخرج نبيل محفظته، وسحب منها ورقة مطوية أربع مرات. لم تكن الأصلية؛ احتفظ رائد بها وأعطاه نسخة. فردها على الطاولة، فظهرت عند أسفلها توقيعات ثلاثة، أحدها توقيعه. وكان من شروط استكمال الحجز أن يسلم العقار حالياً من الشاغلين.

— اتفاق لحجز حصتي إذا تم البيع.

قال يوسف:

— متى وقعت؟

بقي نظر نبيل على الورقة.

— في مساء اليوم الذي خرجنا فيه من مكتب الروافد.

— بعد أن افترقنا عند السيارة؟

— نعم. اتصلت برائد وعدت وحدي. لم أبع العقار؛ حجزت حصتي
بشروط موافقة بقية الملاك أو القسمة.

قرأ المحقق البنود. كان العربون قابلاً للرد إذا تعذر البيع لسبب خارج
إرادة نبيل، لكنه يتضاعف إذا تراجع بعد تحقق الشروط. سأل أين ذهب
المبلغ.

فتح نبيل تطبيق البنك ووضع الهاتف أمامه. ظهرت تحويلات إلى
موظفي مشروعه: رواتب متأخرة، ومستحقات مورد، وقسط آلة لم يعد
يملكها. بقي في الحساب أقل من ربع العربون.

— لم أخذه لنفسه.

أجابه المحقق:

— نحن نثبت مسار المال، لا نحكم على سبب أخذه.

تمنى نبيل لو لم يقل الجملة. كان يحتاج أن يسمع أحد السبب، لا أن يسجله فقط. منذ ثلاثة أشهر وهو يتلقى الرسائل نفسها: رجل يسأل عن راتبه لأن قسط جامعة ابنه استحق، وآخر يقول إن صاحب البيت أنذره، وثالث لا يطلب شيئاً ويكتفي بإرسال رقم حسابه كل خميس. حين وصل العربون دفع ما استطاع. في تلك الليلة وصلته رسالة من عامل كتب: «دخل الراتب، سترت بيتي». أغلق الهاتف قبل أن يقرأ بقية الرسالة، وبقيت كلمة «ستر» معه حتى جلس أمام المحقق.

وضع المحقق صوراً لمحادثة أخرى.

— هذه الرسائل بينك وبين رائد الكيلاني؟

— نعم.

قرأ يوسف السطر الأول من مكانه. كان رائد قد كتب: «الملاك المترددون يتحركون حين يشعر الشاغلون أن بقاءهم لن يكون مريحاً. نبدأ بعروض خروج، ومعاينة سلامة، وإشعارات نظامية».

وتحتها رد نبيل:

افعلوا النظامي فقط. لا أريد مشكلة مع السكان.

ثم رسالة أخرى من رائد:

نعرف كيف نحرك الملف. المهم ألا يتراجع أحد عند أول شكوى.

ورد نبيل:

لا تدخلوني في التفاصيل، وأبقوا كل شيء في حدود النظام.

رفع المحقق عينيه.

— ما الذي فهمته من «نحرك الملف»؟

— اتصالات، وعروض تعويض، وتنبيه بانتهاء بعض العقود، وتقرير عن حالة المبنى. هذا ما قاله قبلها.

تذكر عبارتين قالهما رائد في اجتماع لم يسجل: «إذا رأى الناس تقريراً عاجلاً عن الخطر، سيطلبون الخروج بأنفسهم»، و«نحتاج أن يرى الفريق أسوأ ما في المبنى، لا أن يكتبوا تقريراً مريحاً ليوسف». كاد يذكرهما، ثم تركهما؛ كان قد فهمهما يومئذ طلباً للتقرير شديد لا أمراً بتغيير شيء.

— وهل عرفت أن شركة صيانة ستدخل ليلاً؟

— عرفت بالمعاينة. أنا وقعت التصريح وسلمت المفتاح.

— وهل عرفت أنهم سيفتحون صندوق الكهرباء؟

— التصريح يمنع النزاع والتبديل. ظننت أنهم يصورون ويقيسون.

— لم أسألك ماذا ظننت. هل عرفت؟

— لا. لو عرفت لما وافقت.

لم ينظر إلى يوسف وهو يقولها. تذكر رسالته: «لا تدخلوني في التفاصيل»، ولم يستطع أن يضعها خارج الجواب.

سأله المحقق عن زياد. قال إنه رآه مع رائد مرتين، ولم يكلمه إلا في مواعيد المعاينة. أنكر أن يكون قد طلب منه أخذ الملف أو الاتصال بسامي. وحين انتهت الأسئلة، وقع على إفادته.

هذه المرة قرأ الإفادة قبل أن يوقعها.

أعاد المحقق إليه مفتاح المدخل ذا القطعة الجلدية بعد أن انتهى تصويره، ووضع نبيل في حلقة من غير أن ينظر إليه.



خرج الأخوان إلى موقف السيارات. كانت الشمس حادة، والسيارة من الداخل أشد حرارة. فتح نبيل الباب ولم يدخل. وقف يوسف في الجهة الأخرى، وبينهما سقف السيارة.

قال يوسف:

— لماذا أخفيت العربون؟

— لأنه يخلص حصتي.

— حصتك نعم. لكن الاتفاق ربطها بإخلاء عقار كامل.

— وربطها بموافقتكم. لم أوقع عنك.

— جعلت الوقت يعمل ضدنا من غير أن نعرف.

ضحك نبيل مرة، بلا فرح.

— والوقت كان يعمل ضدي منذ أشهر، وأنت تعرف. كلما قلت لك

الرواتب، قلت نبحث عن حل لا يظلم السكان. بحثنا، ولم تأت بحل.

— كان حقك أن تطلب بيع نصيبك أو قسمته. لم يكن حقك أن تسلم

ضغط الناس لشركة.

— وأنت؟ كان حقك أن تدير نصيبك كما تريد، لا أن تجعل العقار كله

وعداً مفتوحاً لكل من سكنه. خفضت الإيجارات، ومددت لبعضهم،

ودفعت صيانة من الدخل قبل أن تسألني. كنت تنصرف كأن نصف العقار

الذي ورثته عن أبي صار في يدك أمانة توزعها.

أصابته العبارة. رأى نبيل ذلك في توقف يده فوق مقبض الباب، لكنه

لم يتراجع.

قال يوسف:

- معك حق في أنني اتخذت قرارات وحدي.
- لا تقلها بهذه السهولة.
- ليست سهلة.
- تبدو سهلة منك. تعترف، ثم تبقى أنت الرجل الذي اعترف، وأبقى أنا الرجل الذي أخذ العربون.
- فتح يوسف الباب ثم أغلقه من غير أن يدخل.
- كنت تعرف أنهم سيضغطون.
- نعم. كنت أعرف بالعروض والإنذارات والتقييم. لم أعرف بتخريب ولا نار.
- وكتبت: لا تدخلوني في التفاصيل.
- لأنني لم أرد أن أقف عند باب كل مستأجر وأقول له اخرج كي أدفع راتباً. أردت من الشركة أن تفعل ما يسمح به العقد.
- فإذا تجاوزوا، لا تعرف.
- قلت لهم حدود النظام.
- وطلبت ألا تعرف إذا تجاوزوها.

رفع نبيل صوته للمرة الأولى:

— لا تجعلني شريكاً في الحريق.

لم يرفع يوسف صوته.

— لا أجعلك. قلت للمحقق ما أعرف، لا ما أخاف. لكنك شريك

في الضغط الذي فتح لهم الباب.

جلس نبيل في السيارة، وبقي الباب مفتوحاً. أخرج هاتفه وأرى أخاه

الرصيد الباقي.

— إذا فشل الاتفاق بسبب تراجمي، يطالبون بضعف العربون. المال

ذهب. هل عندك حل لهذا أيضاً؟

نظر يوسف إلى الرقم.

— نحسب ما بقي، ونراجع الاتفاق مع محام. إن كان عليك رد حق

نرده من حصتك أو بطريق نتفق عليه.

— توقع إذن، وينتهي كل شيء.

— لا أوقع قبل أن نعرف حقوق السكان وقيمة العقار وسبب الحريق.

— حتى لو خسرت أنا كل شيء؟

— لا أوقع. وسأجلس معك الليلة لنراجع الدين والاتفاق.

هز نبيل رأسه. لم يجد في الجملة نجاة ولا خصومة كاملة؛ وهذا ما أغضبه أكثر. نزع مفتاح المدخل الجانبي من حلقته، ووضعه فوق سقف السيارة.

قال يوسف:

— المفتاح لك. أنت شريك.

— احتفظ به حتى ينتهي التحقيق.

— لا أريد أن آخذه منك بهذه الطريقة.

— وأنا لم أرد أن تأخذ الشركة مفتاحي بهذه الطريقة، ومع ذلك أعطيته.

أغلق نبيل الباب وانطلق. رأى في المرآة المفتاح ينزلق من السقف ويسقط، ثم رأى يوسف يخني ليأخذه. أعاد نظره إلى الطريق.



الفصل الرابع عشر

ما لم تره الكاميرا الأولى

وصلت إلى هند رسالة من المحقق في منتصف الليل:

الصورة التي أرسلتها مضغوطة. نحتاج الملف الأصلي كما خرج من الهاتف، وأي لقطة التقطت قبلها أو بعدها. لا تعدي الإضاءة ولا تقصي الصورة.

كانت مريم نائمة في الغرفة المجاورة، ويوسف على الأريكة وقد ترك إلى جواره دفتراً يحصي فيه نفقات السكن المؤقت. فتحت هند حاسوبها، ووصلت الهاتف به. ظهرت صور ليلة المعاينة بترتيبها: باب مساحة العمل التي أجرت منها الجلسة الإلكترونية، وكوب قهوة، وواجهة صيدلية، ثم المركبة البيضاء في الممر الجانبي.

الصورة التي أرسلتها من قبل لم تكن صورة واحدة. كان الهاتف قد حفظ معها ثانية ونصفاً من الحركة؛ خاصية تفعلها هند عادة ثم تنساها. فتحت الملف الأصلي إطاراً إطاراً. في اللقطة المختارة ضرب ضوء الخبز لوحة المركبة فحارقين. قبلها بجزء من الثانية كان الضوء أضعف، واللوحة أوضح.

لم تستعمل برنامج تحسين، ولم تطلب من أداة أن تخزن ما غاب. أوقفت الإطار الذي ظهرت فيه الأرقام كما التقطتها العدسة، وصدرته مع الملف الكامل. ثم فتحت الصورة السابقة. ظهر فيها باب المركبة وعليه اسم «المدى للخدمات الفنية»، وفي الزجاج الأمامي بطاقة عمل صغيرة، لا تقرأ كلماتها، لكن لونها وشعارها يختلفان عن ملصق الشركة على الباب.

راجعت بيانات الملف. الوقت: الحادية عشرة وثمان وثلاثون دقيقة. الموقع: الممر الشرقي للعقار. أما الصورة التالية فكانت بعد أربع دقائق، وفيها غطاء صندوق الكهرباء مفتوحاً ورجل يحجب داخله بظهره.

قال صوت أبيها من خلفها:

— لماذا لم تنامي؟

التفتت. كان واقفاً عند باب الغرفة، يمسك كوب ماء.

— المحقق طلب الأصل. رقم المركبة يظهر في لقطة الحركة.

اقترب من الشاشة، لكنه لم يمد يده إلى الفأرة.

— هل أرسلته؟

— سأرسله الآن.

— أرسلني السلسلة كلها.

اختارت كل ما التقطته منذ أن رأت المركبة في الممر، وأرقت النسخ الأصلية. كتبت في الرسالة أنها رأت رجلين، وأن أحدهما عرض عليها صورة تصريح الدخول، وأنها لم تدخل غرفة العدادات ولم ترَ ما فعلاه داخلها. ثم أضافت في سطر مستقل أنها سمعت فرقعة ورأت ضوء الممر ينطفئ ويعود.

قال يوسف:

— ضعي صورة التصريح أيضاً.
أضافتها، ثم أرسلت.

جلس أبوها على طرف الكرسي الآخر. لم يسألها هذه المرة لماذا لم تخبره في تلك الليلة. كانا قد تكلمنا في الأمر: قالت إنها رأت تصريحاً ومفتاحاً فظنت أن الأمر انتهى، وقال هو إنه جعل البيت ينتظر خبره في أمور كثيرة حتى تعودوا ألا يوقظوه إلا بعد وقوع المشكلة.

فتحت هند لقطة منشورها المحذوف، وأنشأت مسودة جديدة إلى جوارها.

— يجب أن أصحح هذا.

قرأ يوسف العنوان القديم الظاهر في اللقطة، ثم ترك لها الشاشة.

— لا تكتبي الآن ما أخبرك به المحقق سراً.

— أعرف.

— ولا تجعلي التصحيح دفاعاً عنا.

نظرت إليه.

— كنت غاضباً من المنشور؟

— كنت غاضباً لأنك ذكرت إصابة أبي طارق قبل أن تسأليه إن كان يريد ذلك، ولأنك جعلت وجهي في صدر الخبر. لكنني كنت غاضباً منك قبل أن أقول لك لماذا. هذا خطئي.

أغلقت هند اللقطة، وبقيت المسودة الجديدة بيضاء.



في الصباح اتصل المحقق. طلب حضور هند وحدها أولاً بوصفها ملتقطة الصور، ثم سمح ليوسف ونبيل بالجلوس عند عرض ما توصلوا إليه لأن الأمر يتعلق بدخول عقارهما.

وضع على الشاشة الإطار الذي استخرجته هند. قال إن رقم اللوحة يعود إلى مركبة مسجلة باسم شركة «المدى للخدمات الفنية». راجعوا

الشركة، فأكدت أن رجلين منها دخلا العقار بأمر عمل وصل عبر منصة
مقاولات تستخدمها «الروافد» لمعاينات الاستحواذ.

قال نبيل:

— هذا معروف. أنا وقعت التصريح.

— المعروف هو التصريح بالمعينة البصرية. أمر العمل الداخلي أوسع في
عبارته.

عرض صفحة أخرى. كان في خانة المهمة: «فحص أحمال وتهيئة تقرير
مخاطر عاجل». وفي خانة مسؤول التواصل اسم زياد منصور، الموظف نفسه
الذي ظهرت بطاقته في حقبة سامي.

قال يوسف:

— هل هذا يثبت أنهم عبثوا بالكهرباء؟

— يثبت وجودهم، والجهة التي أرسلتهم، وأن المهمة تعلقت بالأحمال
لا بمجرد التصوير. لا يثبت وحده أنهم تسببوا في الحريق. الفنيان يقولان إنهما
فتحا الغطاء وقاسا التيار ثم أعاده كما كان.

— والتقارير؟

— لم يرفقاه بالنظام. يقول مديرهما إن زياد طلب مسودة مباشرة قبل اعتمادها.

سأل نبيل:

— هل رائد طلب ذلك؟

— لم نصل إلى جواب نهائي. رائد يقول إن زياد نسق الإجراء ضمن صلاحياته، وينفي أنه طلب أي تدخل غير مسموح. نحن نراجع المراسلات وأدوات الفنيين، ومنتظر نتيجة فحص اللوحة.

نقل أمر العمل مركبة الصيانة من خلفية صورة التقطتها هند إلى مسار التحقيق، وبقي ما جرى داخل صندوق الكهرباء قيد الفحص.

طلب المحقق منها ألا تنشر رقم اللوحة، ولا اسم الفنيين، ولا صورة أمر العمل. سمح لها أن تقول إنها سلمت صور المعاينة إلى الجهة المختصة، وأن سبب الحريق لم يحسم.

عادت إلى البيت، وفتحت حسابها. لم تستعد المنشور القديم؛ كتبت تصحيحاً مستقلاً:

تصحيح واجب: نشرت أمس مقطعاً ناقص السياق دفاعاً عن والدي، وأضفت في الردود معلومات غير مكتملة عن المعاينة. الثابت

في التسجيل أن سامي دخل الورشة وأخذ الملف، وقد أقر بذلك. أما سبب الحريق فلم يصدر فيه تقرير نهائي. وكانت هناك معاينة فنية للعقار في الليلة نفسها، وقد سلّمت صورها الأصلية إلى جهة التحقيق. ولا ثبتت الصور وحدها مسؤولية أحد عن الحريق.

أخطأت حين نشرت قبل اكتمال الوقائع، وحين ذكرت إصابة أبي طارق من غير أن أستأذنه أو أستأذن أسرته. أعتذر له ولأسرته، ولكل من مسه المنشور.

قرأ يوسف النص من بدايته إلى نهايته. لم يغير كلمة.

— أرسله لأبي طارق قبل أن تنشره.

اتصلت بطارق، وطلبت أن يقرأه على أبيه إن كان مستيقظاً. عاد بعد دقائق برسالة قصيرة: «يقول أبي: لا تكتبي أن أباك أنقذني. رجال الإطفاء هم الذين دخلوا وأخرجوني».

أضافت هند أن رجال الإطفاء أخرجوا أبا طارق بعد أن دلهم يوسف على موضع محله، من غير أن تنسب الإنقاذ إليه. ثم نشرت التصحيح في حسابها، وأرسلته إلى المجموعات نفسها التي وصلها المقطع.

جاء أول تعليق بعد أقل من دقيقة:

« كل يوم تغيرون كلامكم».

وضعت هند المؤشر في خانة الرد. كتبت: «نعم. غيرت ما كتبتة لأن بعضه لم يكن دقيقاً»، ثم ضغطت إرسال.

كان المنشور الأول قد انتشر أسرع، وقد يصل إلى أشخاص لا يرون اعتذارها. ثبتت التصحيح في أعلى صفحتها، وتركت تحته وقت النشر ظاهراً، بلا صورة لأبيها.



الفصل الخامس عشر

الرجل خلف العرض

اختار رائد طاولة في آخر مقهى الفندق، بعيدة عن المصعد والواجهة.
حين وصل يوسف كان أمامه فنجان لم يمس، وملف رمادي يخلو غلافه من
شعار الروافد.

قال رائد:

— طلبت أن نلتقي وحدنا.

— وأخبرت نبيلًا أنني آت.

رفع رائد حاجبه.

— لا تثق بي؟

— لا أريد اجتماعًا آخر يعرف به شريكي بعد أن ينتهي.

أشار له أن يجلس. فتح الملف وأخرج عرضًا من صفحتين، أقصر من
كل ما قدمه من قبل.

— هذا ليس عقد البيع. تسوية أولية. نثبت السعر المرتفع، وتحمل
الشركة سكن الشاغلين شهرًا وبدل انتقال لكل أسرة، وتدفع مبلغًا مستقلًا

لعلاج أبي طارق وخسائر المحال. في المقابل توقعان البيع خلال سبعة أيام،
وتنهيان أي مطالبة مدنية تجاه الروافد مرتبطة بدخول فريق الصيانة.

قرأ يوسف الصفحة الأولى ثم الثانية. عند آخرها فقرة معدة للنشر،
تقول إن المالكين لا يملكان دليلاً على صلة الشركة بالحريق وإن المعاينة
انتهت من غير تدخل في مرافق العقار.

— لا أستطيع توقيع هذا.

— لأنك تملك دليلاً؟

— لأنني لا أملك جواباً. العبارة تقول إنهم لم يتدخلوا، وأمر العمل
يقول إنهم كُفِّوا بفحص الأحمال.

— القياس ليس تدخلاً.

— ليس دوري أن أقرر. التقرير لم يخرج.

أعاد يوسف الورقة إلى الطاولة.

قال رائد:

— أنت لا توقع على قضية جنائية، ولا يستطيع أحد أن يطلب منك
ذلك. نحن نهني نزاعاً مدنياً قد يبقى سنوات. كل أسرة تأخذ مالاً وسكناً،
وأخوك يخرج من دينه، وأنت تبدأ ورشة أخرى. أين الضرر؟

— في أنني لا أملك مطالبات الأسر ولا إصابة أبي طارق. اعرضوا على كل واحد ما يخصه.

— أنت من جمعهم، وأنت من يوقفهم الآن.

— جمعت أسماءهم، ولم آخذ أصواتهم.

مال رائد إلى الخلف. مر عامل المقهى، فسأله إن كان يريد تجديد القهوة. قال لا، وانتظر حتى ابتعد.

— كنت في مثل هذا الحي، يا يوسف. أبي استأجر مخزنًا ثلاثين سنة، وحين بيع المبنى خرج بمفتاح لا يفتح شيئًا. لم يقف له رجل طيب يحصي خسائره. أخذنا ما استطعنا، وبدأنا من جديد. المدن لا تنتظر حتى يجد كل واحد بابًا يعجبه.

— لهذا تعرف أن ثلاثين يومًا قد لا تكفي.

— أعرف أن ستة أشهر لن تكفي من يريد ألا يخرج. في النهاية سيبيع العقار، وسيخرج الناس، وستكتشف أنك أخرت المال ولم تمنع النتيجة.

فتح رائد صفحة في الملف، وأدارها نحوه. كان تمويل المشروع مشروطًا بإتمام شراء القطع خلال ثمانية عشر يومًا، وتحت الشرط جدول عربونات دُفعت لأربعة ملاك مجاورين.

— إذا انتهت المهلة، نعيد التفاوض على التمويل كله، وقد نخسر ما دفعناه للقطع الأخرى. لست أطلب السرعة لأنني أحب المواعيد الضيقة.

قال يوسف:

— قد يباع. قلت لنبييل ذلك، وقلت للسكان. لكن خروجهم لا يحتاج أن يكون في الظلام.

مرر رائد إصبعه على حافة الملف.

— ما زلت نتكلم كأننا أشعلنا النار.

— لم أقل ذلك.

— مقطّع ابنتك واسم شركتي في ردودها قالا ما يكفي.

— صححت هند منشورها. وأنتم أرسلتم فنيين ليلاً بأمر أوسع من التصريح. هذا ثابت أيضاً.

— زياد نسق العمل. إذا تجاوز حدود مهمته، يتحمل ما فعل.

— وسرقة الملف؟

— موظف حاول الحصول على أوراق كان سيحصل عليها عند البيع. لم أمره بسرقة شيء.

— لكنه قال لسامي إنك لا تريد معرفة التفاصيل.

ضحك رائد بلا صوت.

— وهل صار كلام سارق عن موظف دليلاً علي؟

— لا. لهذا لم أقل إنه دليل. سألتك فقط.

سحب رائد الورقة، وقلبها على وجهها.

— لماذا يصعب معك كل شيء؟

— لم أطلب أن ترفع السعر ولا أن تدفع علاجاً مقابل تنازل. طلبت

تقييماً مستقلاً ووقتاً معلوماً للانتقال، وأن تبقى قضية الحريق منفصلة.

— التقييم وصلني. عرضنا أعلى منه.

— أعرف.

توقف رائد، ورفع نظره من الملف.

قال يوسف:

— السعر ليس مشكلتي الآن. أرسل عقد بيع بلا إعفاء من شيء لم

يظهر، واجعل لكل ساكن عرضاً باسمه، ونظر فيه.

— ونأخذ منك الأرض ونبقى نحن تحت التحقيق والدعاوى؟

— أنتم لا تشترون براءتكم من مال الأرض.

ظهر الضيق على وجه رائد ثم اختفى. فتح هاتفه، ووضع أمام يوسف سجل مكالمات.

— سألتني في ليلة الحريق كيف عرفت. زياد اتصل بي عند الثانية وتسع دقائق وقال إن دخاناً خرج من المبنى. كنت متجهاً إلى قطعة مجاورة؛ طلبت منه أن يلقيني هناك ويسلمني مسودة المعاينة قبل الصباح. وصلت، ورأيت النار، واتصلت بك. أعطيت هذا السجل للمحقق.

فتح بريده، وأراه رسالة وصلت قبل المكالمة بنحو نصف ساعة. كان عنوانها «صور أولية»، وفيها لقطات للعدادات وجدول لم يكتمل. لم يظهر في الصور لهب ولا دخان، ولم تحمل العبارة حكماً نهائياً على سلامة المبنى.

— هذا ما رأيته قبل أن أتجه إلى الحي، قال رائد. طلبت تقريراً سريعاً، لا حريقاً. إذا أخطأ الفنيون أو زياد، فلست أنا من أعاد الغطاء بيده.

قرأ يوسف وقت الرسالة واسم مرسلها، ثم أعاد الهاتف.

— لم أقل إنك قصدت النار. السؤال: ما الذي طلبته حتى وصلوا إلى هذا؟

— طلبت إظهار الخطر كما هو، لأنكما، أنت وأخوك، كنتما تتعاملان مع المبنى كأنه يستطيع الانتظار عشر سنوات أخرى.

- والتقيرير يستطيع أن يظهر الخطر من غير أن يصنعه.
- إذا ثبت أنهم صنعه، حاسبهم. لا تجعل كل أمر عاجل جريمة بعد أن ساءت نتيجته.
- ولماذا لم تقل من أول ليلة إن زياد اتصل؟
- لأنني عرفت كيف سيبدو. وها أنت تنظر إلي بالطريقة نفسها.
- أنظر إليك لأنك قلت إنك كنت ماراً.
- أعاد رائد الهاتف إلى جيبه.
- كنت قريباً. اختصرت الكلام.
- والاختصار أخفى الرجل الذي أرسل الفريق وكلم سامي.
- لم يجب رائد. أعاد الصفحتين إلى الملف، وأغلقه.
- يبقى العرض حتى مساء الغد. بعد ذلك تسحب الشركة عرضها، وتدافع عن اسمها بالطريق الذي تراه.
- وقف يوسف.
- أرسل النسخة إلى نبيل. لا تعرض علي ما يخصه من وراءه.
- أخوك يعرف كيف يحمي حقه.

— وأنا أعرف الآن أن معرفتي بعد الاجتماع لا تكفي.

خرج يوسف من الفندق، وجلس في سيارته قبل أن يشغلها. صور بطاقته التي دون فيها شروط رائد، وأرسلها إلى نبيل ومريم وهند في مجموعة واحدة أنشأها ذلك الصباح. كتب تحتها: «هذا ما عرض، وهذا ما أجبته. نراجع الورق إذا أرسله».

جاء رد مريم أولاً: «وصل».

ثم اتصل به المحقق. قال إن سامي طلب لقاءه بحضور محاميه، وإن لديه ما يريد إضافته عن ليلة الحريق.

نظر يوسف إلى باب الفندق. كان رائد قد خرج ووقف تحت المظلة، يتحدث في هاتفه.

قال يوسف للمحقق:

— آتي في الموعد الذي تحدّدونه.



الفصل السادس عشر

سامي بلا حكاية جميلة

جلس محامي سامي في أول الطاولة، ووضع بينه وبين موكله دفتراً أصفر. جلس المحقق عند الطرف الآخر وأمامه نموذج إفادة إضافية. لم تكن الغرفة هي غرفة التحقيق السابقة؛ كانت أصغر، وفي بابها نافذة زجاجية يقف خلفها موظف يمر كل حين.

قال المحامي ليوسف:

— طلب سامي وجودك لأنه يريد تصحيح جزء من كلامه أمام من يخصه، لا ليطالب منك تنازلاً. أي حديث عن الحق القانوني يبقى عبر الإجراءات.

أوماً يوسف. بقي سامي ينظر إلى الدفتر.

— تكلم، قال المحامي.

قال سامي:

— يوم اتصلت بك قلت إن زياد طلب صور الملف ثم طلبه كله. هذا صحيح. لكنني لم أقل كل شيء عن سبب موافقتي.

انتظر يوسف.

— قلت للمحقق إنني احتجت المال. ظن أن عليّ ديناً، ولم أصح له. لم يكن عليّ دين كبير.

— إذن لماذا؟

— كنت أريد دراجة أعمل عليها في التوصيل. وجدت واحدة مستعملة، وصاحبها يريد دفعة أولى. كنت سأخرج من الورشة بعد أن آخذ المال.

رفع يوسف عينيه إليه.

— من غير أن تقول؟

— لو قلت، لبدأت تبحث لي عن ورشة أو تكلم أحداً. كنت أريد أن أخرج وحدي.

— فاخترت أن تخرج بملف ليس لك.

— أعرف.

لم يقلها معذراً ولا متحدياً؛ خرجت خافتة كأنها جواب حفظه. فتح المحامي الدفتر وكتب سطرًا.

قال سامي:

— كلما قال أحد إنك أعطيتني فرصة، كنت أشعر أنني لا أعمل، بل أسدد لك عمري. أبو طارق نظر إلى المفتاح كأنك أعطيته لصاً. وأنت أخرجت ورقة الأدوات أمامه.

— أخرجتها لأثبت انتهاء ما عليك، ولم أقل له ما فيها.

— فهم.

تذكر يوسف لحظة صمت أبي طارق والعبارة القصيرة: «أنت أعرف

به».

— كان ينبغي أن أكلهم وحدك، قال.

رفع سامي رأسه، وفي عينيه شيء يشبه الانتصار السريع.

أكل يوسف:

— لكن ذلك لا يجعل سرقتك للهلف خطئي.

اختفى الشيء.

— لم أقل ذلك.

— قل ما تريد قوله كاملاً، ولا تحملي قرارك لأنني أخطأت معك.

تدخل المحامي:

— أكل ليلة الحريق.

شبك سامي أصابعه.

— حين دخلت، كانت رائحة البلاستيك الساخن موجودة. قلت في المعينة إنها خفيفة. كانت أوضح مما قلت. رأيت غطاء غرفة العدادات غير مستقر، والضوء في آخر الممر ينطفئ ويرجع.

— لماذا لم تقل هذا أول مرة؟

— خفت أن يقولوا إنني عرفت بالخطر وتركته.

— وهل فكرت أن نتصل بأحد؟

— فكرت.

— ثم؟

— اتصل زياد وطلب مني أن آخذ الملف وأزل. خفت إن خرجت لأنادي أحداً أن يهرب ولا يعطيني المال. قلت لعلها رائحة من الفحص؛ في المكان أسلاك قديمة.

وضع المحامي قلبه.

— هذه النقطة ستضاف إلى إفادتك، وهي قد تحمل عليك سؤالاً عن

ترك التنبيه. هل تفهم؟

— أفهم.

قال يوسف:

— وبعد أن رأيت سيارات الإطفاء؟

— كان يمكن أن أتصل. لكن المقطع لم يكن قد انتشر، وخفت أن يجدوا الملف معي فيقولوا إنني أشعلتها. بقيت في المحطة. كل قرار بعده جعل الرجوع أصعب.

— ولم يجعله مستحيلاً.

— أعرف.

ساد الصمت. من خلف الزجاج مر موظف يحمل أكواباً ورقية، ثم عاد الممر فارغاً.

قال سامي:

— الناس يقولون إنك ما زلت تدافع عني.

— أقول إنك سرقت ولم يثبت أنك أشعلت النار.

— قل لهم إنني لم أشعلها.

— لا أعلم. أقول ما أعلم.

— أنت تعرفني.

— أعرف أنك عملت عندي، ورددت أدوات أخذتها، ثم أخذت ملفاً بعد أن أعطيتك مفتاحاً. معرفتي بك لا تثبت ما فعلته في تلك الليلة.

أبعد سامي الكرسي قليلاً.

— إذن لماذا جئت؟

— لأنك طلبت أن أسمع، ولأن ما تقوله عن ليلة الحريق قد يحفظ حقلك وحق غيرك. لم آت لأريحك من النتيجة.

دوّن المحقق في نموذج الإفادة الإضافية: الراحة، وغطاء الغرفة، وانقطاع الضوء، وامتناع سامي عن التنبيه. قرأها عليه جملة جملة. طلب سامي تغيير عبارة «يتقن وجود خطر» إلى «لاحظ أمراً غير معتاد»؛ قال إنه لم يتقن. وافق المحقق، لأن الثانية هي التي قالها.

قال المحامي:

— بقيت مسألة رد الحق في الملف. الأوراق عادت، لكن أصحابها تكلفوا استخراج صور بديلة وتغيير أقفال ومراجعات. هل تريد يا أستاذ يوسف أن تقدم تقديرك الآن؟

أخرج يوسف ورقة أعدتها المحامية سلوى. كانت فيها تكلفة القفل الجديد، وتصوير العقود، والساعات التي تعطلت فيها المعاملات. لم يضع فيها ثمن الورشة ولا إصابة أبي طارق.

— هذا ما يخص أخذ الملف. الحريق ملف آخر، وإصابة أبي طارق حقه هو.

قرأ سامي الرقم.

— لا أملكه.

— لم يقل أحد إنك تملكه اليوم، قال المحامي. يثبت، ثم يقترح رد بحسب ما تقرره الجهة وقدرتك.

قال سامي:

— عندي أدوات في البيت.

— احصر ما تملك أولاً، قال المحامي. لا تقدم هنا وعداً لا تعرف كيف تنفذه.

نظر سامي إلى الورقة مرة أخرى.

— تستطيع أن تخفضه.

— إذا ظهر أن بنداً ليس بسببك نحذفه. أما الباقي فليس كله حقي
وحددي.

وضع المحامي الورقة مع المحضر، وكتب أنها مطالبة أولية قابلة للمراجعة،
لا إقراراً نهائياً من سامي.

قبل أن يوقع، سأل سامي:

— إذا فتحت ورشة ثانية، هل أرجع؟

لم يأت السؤال في موضعه، لكنه كان صادقاً على نحو أزعج يوسف أكثر
من الاعتذار المرتب.

— لا أعرف إن كنت سأفتح، ولا أعرف أين تكون قضيتك. وإذا
سألتني الجهة عن عملك، أقول إنك تعلبت الصنعة وأعدت ما أخذت أول
مرة، وأقول إنك خنت المفتاح في الثانية. لن أحذف نصفاً لأجل نصف.
— يعني لا؟

— يعني أن اليوم ليس موعد هذا السؤال.

خفف سامي عينيه إلى الورقة. وقع اسمه في أسفلها، ثم أعاد القلم إلى
المحامي.

نهض يوسف. عند الباب قال سامي:

— عمي، الدراجة لم تكن تستحق.
التفت إليه يوسف، ثم خرج من غير أن يجيب.



الفصل السابع عشر

حساب البيت

وضعت هند تقرير التقييم في وسط المائدة، وفتحت الصفحة التي تحمل الأرقام النهائية. جلس نبيل قبالتها، وإلى جانبه حقيبة أوراق مشروعه. أما يوسف ومريم فجلسا متجاورين للمرة الأولى منذ بدأ الحديث عن البيع؛ لم يحمل أحدهما دفترًا لا يراه الآخر.

قالت هند:

— قيمة الأرض أعلى مما قدرنا، وقيمة المبنى بعد الحريق تكاد تقتصر على ما يمكن إزالته أو استعماله. عرض الروافد الأخير أعلى من التقييم، لكن شرط الإخلاء السريع ينقل كلفة كبيرة إلينا.

قال نبيل:

— أعرف قراءة الخلاصة.

— طلبت مني أن أقرأها للجميع.

خفف عينيه إلى الورقة.

— أكملني.

لم تحدث هند مع عمها على انفراد منذ عاد الأخوان من الإفادة
وعرفت الأسرة بأمر العربون.

قليت الصفحة.

— المثلثن يقترح عرض العقار على أكثر من مشترٍ بعد صدور تقرير
السلامة، وألا يقل وقت التسليم عن تسعين يومًا. المحامية سلوى قسمت
المبالغ إلى ثلاثة: ما يجب علينا بحكم العقود، وما يطالب به المتضررون ممن
تسبب في الحريق، ومساعدة انتقال نختارها نحن ولا نسئها تعويضًا عن شيء
لا نملكه.

قالت مريم:

— نبدأ بما يجب.

أخرج يوسف كشفًا. لم يدفعه إلى منتصف المائدة قبل أن تنظر مريم
إليه.

— تأمينات الشقق والحلات، وصيانة دفعها اثنان من المستأجرين ولم
تُستهلك بعد، وإيجار أيام الإغلاق. هذه تخرج قبل تقسيم ثمن البيع.

قال نبيل:

— أتفق.

— ثم نعرض بدل انتقال مناصفة.

— كم؟

ذكر يوسف رقماً. فتح نبيل الآلة الحاسبة في هاتفه، وضربه في عدد الوحدات.

— هذا فوق ما في العقود.

— نعم.

— قل إذن إنه من حصتك.

تحرك يوسف ليجيب، لكن مريم سبقته:

— لا تقل ذلك قبل أن نحسب حصتك وما يحتاج إليه بيتنا وورشتك الجديدة إن فتحتها.

نظر إليها، ثم أعاد القلم إلى الورقة.

قال نبيل:

— أنا أدفع نصف المبلغ الذي تقترحه المحامية بوصفه انتقالاً معقولاً. ما فوقه يختاره كل واحد من حصته.

كتب يوسف ذلك.

— موافق.

قالت هند:

— وأبو طارق؟

— علاجه وخسائره في المطالبة على المتسبب، قال يوسف. وإذا تأخر الحكم واحتاج إلى مبلغ عاجل، لا نسمي ما نعطيه إسقاطاً لحقه.
قال نبيل:

— ومن يدفع العاجل؟

— نجلس معه ونسأله، ثم أقول ما أستطيع من حصتي بعد أن أراجعه
مع مريم.

رفعت مريم قلمها عن الورقة.

— هكذا أفهم قبل أن يصبح الوعد ديناً.

فتح نبيل حقيبته. أخرج كشف ديونه كاملاً هذه المرة، ومعه صورة
اتفاق العربون.

— بقي من المئة والثمانين اثنان وأربعون ألفاً. وضعتها في حساب
منفصل اليوم. الباقي ذهب للرواتب والمورد كما رأيتم. إذا طلبوا رد العربون
قبل البيع، لا أملكه.

قال يوسف:

— المحامية قالت نطلب تجريد المطالبة إلى أن يتحدد أثر إخلالهم بالعقد وما ينتهي إليه التحقيق.

— وإن رفضوا؟

— يوثق الدين عليك، ويسدد من حصتك عند البيع.

— بسهولة، قال نبيل.

لم يرد يوسف. وضعت هند أمام عمها ورقة أخرى.

— هذه قائمة ما دفعته للعمال. إذا اتهمك أحد بأنك أخذت المال لنفسك، فعندك ما يثبت أين ذهب.

نظر نبيل إليها.

— شكرًا.

كانت أول كلمة بينهما لا تحمل دفاعاً منذ الحريق.

قالت مريم:

— بقي حساب هذا البيت.

فتحت دفتر الأسرة. كتبت تكلفة إصلاح المطبخ المؤجل، ومبلغاً يكفي ثلاثة أشهر، وما يحتاج إليه يوسف ليستأجر ورشة صغيرة ويشتري أدواتاً أساسية إن لم تعد أدواته صالحة.

قال يوسف:

— ونقل هند؟

أجابت هند:

— المؤسسة لم تلغ العرض. قبلوا التصحيح، لكنهم طلبوا أن أفصل حسابي الشخصي عن عملهم. سأبدأ بعد شهر إذا أرسلت العقد. لدي ما يكفي للسكن الأول، وأحتاج منك مساعدة في الضمان فقط.

قال أبوها:

— كنت قد وعدتك بالمبلغ كله.

— وعدتني قبل أن نخبرنا بالحساب. لا أريد أن يكون انتقالي ديناً جديداً تخفيه.

لم تعرف هل آلمته العبارة، لكنه كتب «ضمان سكن هند» في صفحة الأسرة، وسألها عن الحد المطلوب. أعطته الرقم، فكتبه كما هو.

بعد ساعتين اكتملت مسودة المقترح. وافق نبيل على عرض العقار عبر وسيط مستقل وعلى مهلة التسعين يوماً. وافق يوسف على أن البيع محتمل، وألا يعد السكان ببقاء المبنى. وأصرّت مريم على أن أي زيادة يقدمها يوسف من حصته تعود إلى المائدة قبل أن يقولها لصاحبها.

قال نبيل:

— هل نعيد العرض على الروافد إذا حذفوا التسوية؟

أجابه يوسف:

— ندخلهم مع غيرهم إذا بقي عرضهم. لا نعطيهم حقاً منفرداً في الشراء، ولا نستبعد سعراً أعلى لمجرد الغضب.

قالت مريم:

— والتحقيق؟

— يبقى منفصلاً، قالت هند وهي تقرأ مذكرة سلوى. البيع لا يثبت مسؤوليتهم ولا ينفذها.

وضعوا شروطاً يرسلها الوسيط إلى كل مشترٍ: مهلة التسليم، والمبالغ المحجوزة قبل تقسيم الثمن، وعدم اشتراط تنازل من ساكن عن إصابة أو خسارة لا تدخل في عقد الإيجار. قال نبيل إن كثرة الشروط قد تخفض

السعر. قالت مريم إنهم يحسبون الخفض قبل أن يعدوه خسارة؛ فقد يكون الفرق هو ما كانوا سيدفعونه بعد البيع على أي حال.

كتب يوسف اسم كل من سيحضر اجتماع السكان، وترك خانة المطالبة أمام كل اسم خالية.

— نعرض المقترح نفسه، قال. وكل واحد يقول ما يخصه.

وصلت رسالة بريد إلى هند. فتحتها، فظهر التقرير الأولي للمهندس الإنشائي. قرأت الفقرة الأخيرة بصوت أبطأ:

— «يمكن إصلاح الأجزاء القائمة من الناحية الفنية، غير أن إعادة المبنى إلى استعمال آمن تستلزم تدخلاً واسعاً تقارب كلفته معظم قيمة الإنشاء. ويوصى بعدم الإشغال إلى حين القرار النهائي».

لم يقل يوسف إن الورشة ستعود. أخذ الورقة، ووضعها فوق حساب الأدوات الجديدة.

قال نبيل:

— نخبر السكان غداً.

قال يوسف:

— نخبرهم بالتقرير والمقترح، لا بالقرار قبل أن يسمعوا.

هذه المرة لم يعترض نبيل. جمع نسخته من الأوراق، وترك النسخة
الأخرى على المائدة حيث يستطيع الجميع قراءتها.



الفصل الثامن عشر

الحقوق على الورق

رتبت سلوى الطاولات على شكل مربع، لا صفوفًا تواجه منصة. قالت إن الجلسة ليست إعلانًا عن بيع تم، ولا مجلس صلح يخرج منه الجميع راضين، بل محاولة لمعرفة ما هو متفق عليه وما بقي مختلفًا فيه.

وصل يوسف قبل الموعد بنصف ساعة، يحمل سبعة ملفات بألوان مختلفة. وضع أمام كل أسرة وصاحب محل نسخة من عقده وإيصالاته وما سجله من مطالبته، وبقيت الأصول عند سلوى.

قالت له:

- لا تجب عني في المسائل التي لا تعرفها.
- حاضر.
- ولا تعد بمبلغ قبل أن يوافق أخوك وتكتبه.
- نظر إلى نبيل، الذي كان يثبت آلة حاسبة صغيرة إلى جوار دفتره.
- اتفقنا.

دخل أبو طارق متكئاً على ذراع ابنه. رفض الكرسي القريب من الباب، واختار مكانه المعتاد إلى جوار صاحب البقالة. بقي أثر الحرق على ساعده، وصار يتوقف في منتصف الجملة ليأخذ نفساً أعمق، لكنه أصر على أن يتكلم بنفسه.

بدأت سلوى بأمر سلمان. كان عقدها قد بقي فيه سبعة أشهر، بينما يقترح المالكان تسليم العقار بعد تسعين يوماً.

قالت أم سلمان:

— ابني في فصل التخرج. إذا نقلته الآن إلى جهة بعيدة، يتغير طريق المدرسة والمراجعات. المال لا يجد لي شقة قريبة إذا كان كل أصحابها يعرفون أنني مستعجلة.

قال نبيل:

— يمكن تمديد المهلة لها وحدها، لكن المشتري قد يخفض السعر إذا لم يتسلم كاملاً.

سألته سلوى:

— هل ترفض التمديد؟

نظر إلى جدول الديون أمامه، ثم قال:

— لا أرفض. أريد أن أعرف كلفته، وأن تكتب في حساب حصتنا نحن، لا في ذمة بقية السكان.

كتبوا مئة وعشرين يوماً بدل تسعين. وللمدة الباقية من عقدها سجلوا خيارين: أن ينتظر المشتري نهايته، أو يعرض عليها بدل السكن والنقل إن قبلت لإنهاءه مبكراً. سألت أم سلمان من يضمن دفع البدل. أجابت سلوى أن المبلغ المتفق عليه سيحجز من ثمن البيع قبل توزيعه. عندها وضعت أحرف اسمها إلى جوار المقترح، ولم توقع التسوية النهائية.

جاء دور أبي طارق. كانت قائمته أطول من قائمة الجميع: أدواته، أثاث محله، خمس عشرة ساعة لزيائن، علاج، ودخل أيام الإغلاق.

قال نبيل:

— لا نستطيع تقدير الساعات العاطفية. ثبت قيمة الإصلاح أو قيمة السوق.

قال أبو طارق:

— ساعتان لا سوق لهما. واحدة ورثها صاحبها عن أبيه، والثانية جاءت بها امرأة قبل زواج ابنتها. أنا لا أطلب منكما ثمن الذكري. أطلب ألا تضعوا رقماً وتقولوا انتهى حق أصحابها.

قالت سلوى:

— إذن نثبتان كأمينين متضررتين، ويبقى تقدير مسؤوليتهما في مطالبة مستقلة. لا تدخلان في بدل خروج المحل.

نظر أبو طارق إلى يوسف.

— ولا تعطيني من حصتك ثم تطلب مني أن أوقع أنني استوفيت.

— لن أفعل.

— اكتبها.

كتب يوسف: «أي مساعدة عاجلة لا تعد تسوية نهائية ولا إسقاطاً لمطالبة». دفعت سلوى الورقة إلى أبي طارق، فقرأها ثم قال إن كلمة «مساعدة» لا تعجبه؛ ليست صدقة إذا كان المال لتشغيل محله مؤقتاً. غيروها إلى «دفعة مؤقتة»، ووقع على استلام نسخة فقط.

اعترض صاحب البقالة على تقييم مخزونه. كانت بعض البضائع قد أتلّفها الماء لا النار، وشركة التأمين تطلب إثباتات لم يحتفظ بها. أخرج نبيل صوراً قديمة للمحل من ملف المعاينة، فظهرت فيها الرفوف قبل الحريق. قال إنه سيرسلها إليه، وظل يقلب الصور حتى وجد زاوية أوضح.

أما أم زياد، فكان عقدها القديم منتهياً، والإيصالات التي كتبها يوسف هي ما يثبت استمرار سكنها. قالت:

— لو كنت كتبت لي عقداً جديداً حين طلبت، لما جلست الآن أثبت أنني لم أدخل البيت أمس.

قال يوسف:

— صدقت. لا ينبغي أن يتحمل عقدك تبعة تأخيري.

قال نبيل:

— لكنه لا يحول الإيصال إلى سبع سنوات جديدة.

اشتد وجهها.

تدخلت سلوى قبل أن يتحول الكلام إلى مساومة في الذاكرة. شرحت أن مدة الإشغال وحقوق الإخلاء تحتاج مراجعة مستقلة، وسجلت اتفاق المالكين على بدل الانتقال من غير أن يعد ذلك إقراراً بمدة مختلف عليها. طلبت أم زياد أسبوعاً لتراجع من نثق به، فكتبوه.

بقي أبو إسام، صاحب محل أغلقه قبل الحريق بشهر لكنه ترك بعض أدواته فيه. قال إن خمسة وعشرين عاماً من الإيجار تمنحه نصيباً من زيادة الأرض، وإنه لن يخرج بمبلغ أدوات مستعملة.

قال نبيل:

— الإيجار لا يصير ملكاً بطول الزمن.

— وأنتم لم تصبحوا أصحاب الحي لأن ورقة الإرث قالت ذلك.

تحرك يوسف في مقعده، ثم نظر إلى سلوى قبل أن يجيب.

— لا أستطيع أن أقول لك إن لك حصة في الأرض. ما لك في العقد

والأدوات تثبته، وإذا كان لك طلب آخر اكتبه وراجعه مستقلاً.

— يعني رفضتم.

— يعني لا أملك أن أوافق.

أغلق أبو بسام ملفه ونهض قبل انتهاء الجلسة. لم يمنعه يوسف، ولم يقل له إن الباب سيبقى مفتوحاً؛ أعطته سلوى نسخة المطالبة وموعد الرد، فحملها وخرج.

بعد ثلاث ساعات، كانت خمس أوراق تحمل موافقة أولية، واثنان تحلان كلمة «قيد المراجعة». لم يصفق أحد. جمع كل شخص نسخته، وسأل عن الخطوة التالية، ثم انصرف إلى المكان الذي يقيم فيه مؤقتاً.

وقع يوسف ونبيل محضر الجلسة وفيه البنود المختلف عليها كما هي. رفض نبيل عبارة توشي بأنهما ضمنا قبول المشتري بكل مطلب، فصححتها سلوى

إلى أنهما سيعرضانها ضمن شروط البيع. ورفض يوسف وصف بدل الانتقال بأنه «إحسان من المالكين»، فكتبوا اسمه من غير وصف. خرجت النسخة الأخيرة أقل دفئاً من الكلام، لكنها أدق منه.

بقيت أم سلمان عند الباب. قالت ليوسف:

— قل لي من غير أوراق: هل سيدم البيت؟

نظر إلى التقرير الإنشائي المفتوح أمامه.

— الغالب أنه لن يعود صالحاً لنا بالكلفة التي نملكها. لم يصدر قرار

الهدم بعد، لكنني لا أريد أن تنتظري على وعد الرجوع.

ثبتت نظرها عليه لحظة، ثم ضمت ملفها إلى صدرها.

— كان ينبغي أن تقولها من أول يوم.

— لم أكن أعرفها من أول يوم.

— واليوم تعرف.

— واليوم أقولها.

خرجت. بقي يوسف ونبيل وسلوى يعيدون الكراسي إلى أماكنها. على

كل طاولة أثر دائري تركه كوب ماء، وفي الوسط بقي ملف أبو بسام مغلقاً

عند الصفحة التي لم يوقعها.



الفصل التاسع عشر

شهادة الأخ

قرأ نبيل تقرير الحريق في سيارته قبل أن يدخل. لم يفهم أسماء القطع التي ذكرها الخبير، لكنه فهم الخلاصة: بدأ الحريق من منظومة الكهرباء المشتركة بعد فحص فريق الصيانة. تجاوز الفنيان المعاينة البصرية، وأجريا اختباراً تشغيلياً لم يسمح به التصريح، ثم تركا جزءاً من المنظومة في حالة غير آمنة. تراكمت الحرارة بعد مغادرتهما، وظهر اللهب لاحقاً.

لم يجد التقرير مادة مسرعة للاشتعال، ولا دليلاً على أن أحداً قصد إحراق المبنى. وصف ما حدث بأنه نتيجة متأخرة لإجراء غير مصرح به وإهمال في إعادة الموقع إلى وضع آمن.

استبعد التقرير أن يكون سامي قد أشعل النار، وبقيت سرقة الملف في مسارها المنفصل.

في حقيبة نبيل ورقة أخرى وصلت من محامي الروافد. تعرض الشركة لإسقاط المطالبة بمضاعفة العيوب، وتأجيل رد أصله إلى موعد البيع، إذا وقع نبيل إقراراً بأن كل ما اتفق عليه مع موظفيها مكتوب في الرسائل والعقود، وأنه لم يتلق وعداً أو توجيهاً شفهياً يتعلق بإخلاء السكان أو تقرير السلامة.

قرأ الإقرار مرات. كان يستطيع توقعه إذا سمى ما قاله رائد «كلاماً عاماً» لا اتفاقاً. لم يطلب منه رائد في حضوره أن يحرق أو يخرب أو يلهس سلماً. قال فقط، في اجتماع لم يسجل: «إذا رأى الناس تقريراً عاجلاً عن الخطر، سيطلبون الخروج بأنفسهم. نحتاج أن يرى الفريق أسوأ ما في المبنى، لا أن يكتبوا تقريراً مريحاً ليوسف».

سأله نبيل يومها: «من غير أن يغيروا شيئاً؟»

أجابه رائد: «لا أحد يريد ضرراً. نريد تقريراً لا يدفن العيوب».

ترك نبيل الجملة خارج إفادته الأولى. أقنع نفسه أنها لا تضيف شيئاً؛ فالتصريح المكتوب يمنع التغيير، ورائد نفى الضرر. لكن التقرير جعل ما حذفه أثقل مما قاله.

دخل المبنى الحكومي قبل الموعد بخمس دقائق. كان محامي الروافد في الممر، وإلى جواره رائد. نهض رائد حين رآه.

— قرأت عرضنا؟

— قرأته.

— لا نطلب منك أن تغير شهادتك. فقط ثبت أن العقود والرسائل هي الاتفاق الكامل.

— لم تكن كاملة.

قال المحامي:

— الحديث العام عن فحص المخاطر لا يثبت تكليفاً يتجاوز التصريح.
الإقرار يحميك من نزاع مالي لا علاقة له بالتحقيق.

نظر نبيل إلى رائد.

— قلت إن التقرير العاجل سيخرج الناس.

— قلت إن تقريراً صادقاً قد يفعل ذلك. وهذا صحيح.

— وقلت نريهم أسوأ ما في المبنى.

— أي نوثق العيوب. لا تحول العبارة بعد الحريق إلى أمر لم أقله.

لم يجبه نبيل. سلم الموظف عند الباب اسمه، ودخل.

كان يوسف ينتظر في نهاية الممر. لم يقترب، ولم يسأله ماذا سيقول.

أشار فقط إلى مقعد فارغ قربه. بقي نبيل واقفاً حتى ناداه الكاتب.

في غرفة الإفادة وضع أمامه التقرير، والرسائل السابقة، وإفادته الأولى.

سأله المحقق إن كان يريد أن يضيف شيئاً بعد النتيجة الفنية.

— نعم. هناك كلام قاله رائد في اجتماع قبل المعاينة ولم أذكره.

طلب منه أن يعيد ما يتذكر بلفظه، وأن يفرق بين الكلمة التي يتيقنها والمعنى الذي فهمه. فعل ذلك. ذكر عبارة التقرير العاجل، وعبارة أسوأ ما في المبني، وسؤاله عن عدم التغيير، وجواب رائد أن أحداً لا يريد ضرراً.

— لماذا لم تذكره أول مرة؟

مرر نبيل إبهامه على طرف الورقة.

— لأن عندي عقداً وعربوناً، ولأنني أردت أن أصدق أن الكلام لا يغير شيئاً ما دام التصريح يمنعهم. خفت أن أخسر الصفقة، ولم أر أنني أخفي دليلاً. الآن أراه جزءاً من السياق.

— هل فهمت أن رائد يريد افتعال عيب؟

— لا. فهمت أنه يريد تقريراً شديداً يدفع السكان إلى القبول. ولو فهمت أنه يريد تغييراً في الكهرباء لما أعطيت المفتاح.

— هل طلبت منه ضغط السكان؟

— وافقت على العروض والإنذارات وما ظننته نظامياً. وكتبت ألا يدخلوني في التفاصيل. كنت أريد النتيجة من غير أن أرى الوسائل.

دَوِّنَ المحقق الجملة، ثم قرأها عليه. طلب نبيل حذف كلمة «كنت أعلم» من موضع، واستبدالها بـ«كنت أتوقع»، لأن الأولى تزيد على ما عنده. صححها الكاتب.

حين انتهى، وضع نبيل صورة عرض التسوية على الطاولة.

— وصلني هذا أمس.

قرأه المحقق، وسأله هل وقع. قال لا، فألحق العرض بالملف.

وقع نبيل إفادته المعدلة. بعد ذلك توجه مع سلوى إلى حساب الضمان، وحَوَّلَ مبلغ الاثنین والأربعین ألفاً الباقي من العربون. وقع إقراراً بأن بقية الأصل تبقى ديناً متنازلاً فيه يحسم من حصته عند البيع أو بحسب ما ينتهي إليه النزاع. لم يسقطوا المضاعفة، ولم يثبتوها. بقي الرقم معلقاً فوق ما سيأتي.

خرج بعد الظهر. لم يجد رائد في الممر. كان يوسف في المكان نفسه، يحمل كوبين من الماء. أعطاه واحداً.

— ذكرت الكلام كله.

— حسناً.

— لا تقلها كأنني فعلت لك معروفاً.

— لم أفعل.

جلس نبيل. شرب نصف الكوب دفعة واحدة.

— التقرير يقول إنهم لم يقصدوا النار.

— قرأته.

— وأنا لم أقصد أن يصل الأمر إلى هذا.

— أعرف.

نظر إليه نبيل.

— لكنك لا تقول إن ذلك يكفي.

— لا يكفي لإصلاح ما حدث.

أخرج نبيل إيصال التحويل، وناول له أخاه ليراه. قرأ يوسف المبلغ وأعادته.

— نضع الباقي في حساب البيع قبل أن نقسم شيئاً.

— إذا بقي بيع بعد شهادتي.

— نعرضه على غيرهم.

نهضاً معاً. عند باب المبنى، رأى نبيل سيارة رائد تغادر من الطرف

الآخر. لم يعرف ما الذي سينتهي إليه التحقيق معه أو مع زياد والفنيين. كان

يعرف فقط أن الصفقة التي أرادها لم تعد تنتظر توقيعه، وأن قوله المتأخر لن يعيد الورشة ولا يسدد وحده راتباً واحداً.

اهتز هاتفه برسالة من حسان يسأله عن إفادة خبرة وعده بها منذ إغلاق المؤسسة. فتح نبيل ملفاً جديداً، وكتب مدة عمل الرجل والمهام التي أداها، وأرسلها إليه قبل أن يصل إلى السيارة.

جاءه الرد: «وصلت، جزاك الله خيراً».

طوى إيصال التحويل ووضعه في محفظته، في الموضع نفسه الذي كان يحتفظ فيه باتفاق العربون.



الفصل العشرون

ما لا يعود

بعد سبعة أشهر من الحريق، وقف يوسف في الجهة المقابلة للعقار وهو ينهدم.

لم يكن الهدم مفاجئاً. صدر القرار بعد تقريرين، وعُرضت الأرض على ثلاثة مشترين، واختار يوسف ونبيل عرضاً لم يكن الأعلى رقماً، لكنه منحهم مئة وعشرين يوماً للتسليم، وقبل أن توضع مبالغ المستأجرين المتفق عليها في حساب مستقل قبل توزيع الثمن. لم تكن شركة الروافد هي المشتري. سحبت عرضها حين اتسع التحقيق، ثم بدأ بينها وبين نبيل نزاع انتهى بإعادة الاثنين والأربعين ألفاً المحجوزة واقتطاع بقية أصل العربون من حصته عند البيع، مع إسقاط المطالبة بمضاعفته، من غير أن يعني ذلك أحداً من القضية القائمة.

في يوم الإفراغ جلسا عند سلوى أمام كشف التحويلات. خرجت تأمينات السكان أولاً، ثم بدل الانتقال، ثم الدفعات المؤقتة لأصحاب المحال، ثم الجزء المتبقي من أصل العربون من حصة نبيل بعد احتساب المبلغ المحجوز. لم يصل إلى حساب أي من الأخوين شيء قبل أن تصل رسائل

الاستلام إلى أصحابها. اعترض أبو بسام، فبقي المبلغ المختلف عليه محجوزاً ولم يؤخر نصيب غيره.

حين ظهر صافي الحصتين، كان أقل كثيراً من الرقم الذي عرضه رائد في أول يوم. أغلق نبيل به ما بقي من دين مورد الحديد ورواتب الإنهاء، ولم يبق له ما يعيد به مؤسسته. أما يوسف فخصص مبلغ الورشة الجديدة واحتياط البيت الذي كتبته مريم، ثم ترك الباقي حتى تنتهي المطالبات التي قد تخص الملك نفسه.

كان الهدم مع ذلك أسرع مما تخيله يوسف. دخلت الآلة من الجدار الخلفي أولاً، في الموضع الذي كانت أم سلمان تنشر عنده ثياب أطفالها. سقطت الشقة العليا، وظهر لون غرفة لم تر الشمس جدارها الداخلي من قبل. ثم اختلط الغبار بالماء الذي رشه العمال، وحُجِبَ المبنى كله دقائق.

وقف نبيل إلى جواره، يرتدي خوذة أعطاها له مشرف الموقع. لم يعد يملك مؤسسته؛ أغلقها بعد أن أدى ما بقي من رواتب وباع معداتها. وجد عملاً بوصفه مشرفاً في مشروع صغير بأجر ثابت. لم يكن العمل الذي خطط له، لكنه لم يعد يستيقظ على أجور رجال لا يعرف من أين يدفعها.

قال:

— كان أبي يقول إن هذا الجدار لا يسقط.

— كان يقصد إذا دفعته بيدك.

— ولم يجرب هذه الآلة.

ابتسم نبيل، ثم عدل الخوذة فوق رأسه. لم يتحدثا عن اتفاق العربون؛ كان رقبه مسدداً في الكشف الذي وقّعه.

على طرف الشارع وقف بعض السكان القدامى. انتقلت أم سلمان إلى شقة أبعد قليلاً عن المدرسة، واستعملت جزءاً من بدل الانتقال في سيارة مشتركة تقل ابنها وزميلين. لم تحب الحي الجديد، وقالت ذلك ليوسف كلما رآته. أما أم زياد فاستأجرت قرب ابنها بعد أن انتهت مراجعة عقدها بمهلة أطول مما عرض أولاً. وقعت التسوية في اليوم الأخير، ولم تعتذر عن تأخرها.

لم يأت أبو بسام. استمر في مطالبته حتى اتفق مع المالكين على قيمة أدواته ومدة الإشغال، من غير أن يثبت له نصيب في الأرض. وظل يقول إن المبلغ أقل من عمره في المحل. لم يحاول يوسف أن يقنعه بغير ذلك.

جلس أبو طارق في سيارة ابنه، والنافذة مفتوحة. تحسن تنفسه، لكنه لم يعد يحتمل الغبار أو الوقوف الطويل. استأجر منضدة داخل محل إلكترونيات، وأعاد إليها الساعات التي نجت. أما الساعتان اللتان لم يمكن إصلاحهما، فاتفق مع صاحب إحداها على تعويض، ورفضت صاحبة

الأخرى المال أولاً ثم قبلت أن يدفع لها على دفعات. بقي اسمها في دفتري،
وبقيت ساعة أبيها عنده في صندوق لا يعد بإصلاحه.

قال يوسف له قبل أن تبدأ الآلة في واجهة المحال:

— نغادر إذا أتعبك الغبار.

— لو أتعبني أقول. لا تقرر عن صدري مرة أخرى.

كان في صوته شيء من المزاح وشيء لم يصبح مزاحاً بعد. أوماً يوسف،
وبقي إلى جانبه من غير أن يغلق النافذة.

سقطت لافتة الورشة مع جزء من الواجهة. لم يبق من الاسم إلا كلمة
«الأبواب» لحظة فوق كومة الخشب، ثم غطتها كتلة من السقف. لم يطلب
يوسف من العامل أن يوقف الآلة ليستخرجها. كانت محترقة من طرفها،
ولن تصلح لواجهة جديدة.

اهتز هاتفه. وصل إشعار من الحساب الذي تحفظ فيه المبالغ المحكوم
بها: دفعة صغيرة باسم سامي، أول مبلغ في جدول رد ما ترتب على سرقة
الملف وتلف بعض أصوله. كان أقل من ثمن قفل جيد. أراه لأبي طارق.

قال الرجل:

— بدأ.

— بدأ.

كانت قضية سامي قد فصلت عن سبب الحريق. صدر حكم في دخوله الورشة لغير العمل وسرقة الملف، وأُلزم برد ما ترتب على ذلك وفق جدول بدأ أول دفعاته. ولم تنسب إليه النار بعد التقرير الفني.

أما زياد والفنيان، فأُحيل كل منهم إلى القضاء بحسب ما نُسب إليه: استدراج سامي إلى الملف، وتجاوز أمر المعاينة، وترك المنظومة في حال تسببت بالنار. بقيت مسؤولية رائد والشركة موضع نزاع في جانب من القضية، واحتفظت سلوى بنسخ المطالبات ليتلقى كل صاحب حق خبر مطالبته باسمه.

اقترب مشرف الهدم.

— سنصل إلى الممر الجانبي الآن. الأفضل أن تبتعدوا أكثر.

ساعد نبيل أبا طارق على نقل كرسيه إلى الرصيف الآخر. بقي يوسف لحظة ينظر إلى البابين: باب الورشة الخلفي الذي فتحه المفتاح الأزرق، والمدخل الجانبي المشترك الذي دخل منه فريق الصيانة بالمفتاح ذي القطعة الجلدية. كانا الآن بلا أقفال، معلقين في جدار لا يحجي شيئاً.

ناداه نبيل:

— يوسف.

عبر الشارع إليهم. بدأت الآلة عملها، وسقط المدخلان معاً.

في المساء مر على محل صغير استأجره في شارع يبعد عشرة دقائق.
كانت الأرض خالية إلا من منضدة مستعملة وثلاثة صناديق أدوات
اشتراها بعد أن راجع ثمنها مع مريم. وقف في الوسط، وحدد بعينه موضع
الباب الجديد ورف الحسابات والكرسي الذي ينتظر عليه الزبون.

لم يكن في المكان شيء من الورشة القديمة، سوى قياس يديه للأخشاب
وطريقته في تجربة القفل مرتين.



الفصل الحادي والعشرون

باب يوسف

وقفت هند على السلم القصير، وأمسكت الالفة من طرفها بينما ثبت نبيل المسمار الأخير. كان الاسم في سطر واحد: «باب يوسف للأبواب والأقفال». اختارت له حروفاً بسيطة بلا زخرفة، فاعترض أبو طارق أول الأمر وقال إن الواجهة تحتاج شيئاً يراه الناس من آخر الشارع. أجابته أن من آخر الشارع يستطيع قراءة الاسم، وهذا يكفي.

نزلت عن السلم، وابتعدت لتصوير الواجهة. لم يكن المحل أوسع من نصف الورشة القديمة. في يمينه منضدة، وخلفها رف للأقفال، وفي آخره آلة قص واحدة ومنطقة فصلها يوسف عن الزبائن بحاجز زجاجي. على الباب كتب أوقات العمل: من الثامنة إلى الثانية عشرة، ومن الرابعة إلى الثامنة. وتحتها رقم للطوارئ، وعبارة: «موعد المعاينة وتكلفتها يثبتان قبل الخروج».

علقت مريم إلى جوار المنضدة لوحة أصغر فيها أجرة الكشف، وطريقة دفع العربون، ومكان يكتب فيه موعد التسليم. ترك يوسف السطر الأخير فارغاً.

— ماذا نسيت؟ سألت هند.

— من لا يستطيع الدفع كاملاً.

قالت مريم:

— لا تكتب «مجاناً» وتقرر وحدك. اكتب: «نتاح ترتيبات دفع مكتوبة بحسب العمل».

كتبها يوسف، ثم أضاف دفترًا مستقلًا للأعمال التي يختار أن يتحمل كلفتها من ماله بعد أن يعرفها. وضعه إلى جوار الحسابات، بعلامة تختلف عن ديون الزبائن.

قال نبيل وهو يجرب الباب:

— يحتك من الأسفل.

قال يوسف:

— لأنك رفعت المفصلة العليا أكثر مما قلت لك.

— قلت لي ثلاثة مليمترات.

— قلت اثنين.

أخرج نبيل شريط القياس.

— نقيس، ولا تجعل ذاكرتك عقدًا مكتوبًا.

ضحكت هند. فكا المفصلة، وقاسا، واكتشفا أن إطار الباب نفسه يميل قليلاً. وضع يوسف شريحة رفيعة خلف المفصلة، ثم جربا الباب حتى أغلق من غير احتكاك.

أخرج نبيل فاتورة المفصلات ووضعها على المنضدة.

— هذه بسعر المستودع. لا تقل هدية ولا تكتبها من وراء ظهري في حساب آخر.

قرأ يوسف الرقم، ودفعه من صندوق الورشة.

— استلمت؟

— استلمت.

وقع كل واحد منهما في الدفتر.

وصلت مريم تحمل إبريق القهوة ومغلفاً صغيراً. أخرج يوسف من المغلف مفتاحاً جديداً، وجربه في القفل، ثم ناولها إياه.

قالت:

— أين النسخة الأخرى؟

رفع حلقته.

— معي. لا توجد نسخة ثالثة الآن.

— وإذا احتجت عاملاً؟

— نصنع له مفتاحاً بعقد عمل، ويعرف به كل من يخصه الأمر قبل أن يخرج من يدي.

وضعت مريم المفتاح في حقيبتها. ثم فتحت دفتر الحساب عند الصفحة الأولى. كان فيها رأس مال الأدوات، والإيجار، وما دفعه نبيل، ومبلغ احتياطي لا يمس إلا باتفاقهما. راجعت الجمع، وصححت رقماً كتبه يوسف في العمود الخطأ.

دخل أبو طارق يحمل ساعة حائط صغيرة.

— لا ورشة أبواب بلا ساعة تتأخر عنها.

علقها فوق الرف، وضبطها على الوقت. سأله يوسف عن ثمنها.

— مستعملة، وحركتها تحتاج تنظيفاً. اكتبها في حساب أول شهر.

— أعطني ورقة.

— صرت تطلب الورق مني؟

— نعم.

كتب أبو طارق وصلاً، ووضع قيمة أقل مما توقع يوسف. لم يجادله في القيمة قبل أن يسأله هل هذا ما يريد. قال نعم، فوقعا. جلس بعد ذلك على كرسي الزبائن، وشرب قهوته، ثم خرج قبل أن يزدحم المكان.

جاءت أم سلمان في الظهيرة تحمل صورة باب شقتها الجديدة. كان يحتك بالأرض، كما احتك باب الورشة.

— تمر اليوم؟

فتح يوسف جدول المواعيد.

— عندي موعدان، وأوصل هند إلى المحطة قبل المغرب. غداً التاسعة.

— كنت تأتي في الطريق نفسه.

— وكنت أتأخر عن بيتي. إذا كان الباب لا يغلق، أرسل أحداً الآن. وإن كان يحتك فقط، غداً التاسعة.

قالت إنه يغلق. كتب الموعد والتكلفة المتوقعة، وأعطائها نسخة. قرأتها ثم قالت:

— غداً، لا بعد ظهر الناس.

— التاسعة من ساعة أبي طارق.

خرجت وهي تبسم.

في الرابعة دخل رجل يريد أربعة أبواب لمكتب جديد. كان العمل مناسباً لبداية الورشة، لكنه أراد القياس في السادسة مساءً ذلك اليوم والتسليم خلال أسبوع. حسب يوسف الوقت، ثم قال إنه يستطيع القياس في العاشرة والنصف صباح الغد والتسليم بعد عشرة أيام.

قال الرجل:

— سأدفع زيادة إذا جئت اليوم.

نظر يوسف إلى هند. كانت تضع حقيبتها قرب الباب، ولا تتدخل.

— اليوم لا أستطيع. إن ناسبك الغد كتبت الموعد الآن، وإن كان عملك عاجل أعطيك رقم ورشتين.

تردد الرجل، ثم اختار الغد. كتب يوسف المواصفات، وأخذ عربوناً بوصل، ووضع نسخة في الملف.

عند الخامسة علق يوسف ورقة على الباب تقول إن الورشة ستغلق ذلك اليوم في الخامسة والنصف، وإن رقم الطوارئ متاح حتى الثامنة. ثم أغلق المصراع في الموعد. كانت مريم تنتظرهما في السيارة، ونبيل قد غادر إلى موقع عمله. حمل يوسف حقيبة هند قبل أن تعترض، ثم أعادها إليها حين قالت إن سكنها في الطابق الثالث ولا تريد أن تعود بشيء لا تستطيع حمله.

وصلوا إلى محطة القطار قبل الموعد بأربعين دقيقة. جلست مريم مع هند قرب البوابة، بينما ذهب يوسف ليحضر الماء. كانت قد بدأت العمل قبل ستة أشهر، وكان يعرف عنوان السكن واسم زميلتها وموعد دوامها في صباح اليوم التالي.

حين عاد، قالت هند:

— أنشأت للورشة حساباً، لكنني لن أديره من هناك. صورت لك طريقة إضافة الأعمال والأسعار.

— وإذا أخطأت؟

— تصحح. ولا تدخل في جدال مع كل تعليق.

— هذه وصية لك أم لي؟

ابتسمت.

جاء نداء الرحلة. عانقت أمها، ثم وقفت أمام أبيها. فتح تقويمه، واختاراً نهاية الأسبوع الثالث لزيارتهما التالية، وكتب الموعد أمامها.

— إذا تغير العمل أخبرك قبلها، قال.

— وأنا أيضاً.

دخلت البوابة، ولوحت لهما مرة واحدة قبل أن تختفي في الممر.



في الصباح التالي رفع يوسف المصراع عند الثامنة. ضبط ساعة أبي طارق، وفتح دفتر المواعيد على صفحة اليوم. كان موعد أم سلمان في التاسعة، والقياس للمكتب في العاشرة والنصف.

وقف عند الباب فتى يحمل قفلاً قديماً في كيس شفاف. بقي خارج العتبة، ونظر إلى كرسي الزبائن ثم إلى يوسف.

أفصح يوسف له الطريق.

— تفضل.

تمّت

حديث القريب الهين اللين السهل

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ألا أخبركم بمن يحرم على النار، أو بمن تحرم عليه النار؟ على كل قريب هين

لين سهل»^١.

١. رواه الترمذي (2488)، وقال: «حديث حسن غريب». وحكم عليه الألباني بأنه صحيح لغيره في «صحيح الترغيب والترهيب» (2676).